322

HARLEQUIN

روايات أحلام

... واحترق الجليد !

هيلين بروكس

www.elromancia.com
مرمورية

... واحترق الجليد !

كانت ماريغولد متلهفة إلى قضاء عطلة الأعياد في كوخ صديقتها ... حيث لا ترى رجلاً ! لكنها بعد إصابة كاحلها اضطرت أن تصبح تحت رحمة جارها المتغطرس الوسيم ، الجراح فلين مورو .

أخذ فلين مسؤوليتها على عاتقه وأصر على ماريغولد كي تبقى معه ...

كانا وحدهما في منزله الفخم ، والعاصفة الثلجية التي كانت تعصف في الخارج قابلتها عاصفة من نوع آخر بينهما . كان قرار ماريغولد البقاء عزباء سعيدة ، ولكن كيف تحافظ على قرارها هذا وهي في قبضة أسرها !

لبنان	2500ل.ل	البحرين	1دينار
سوريا	75ل.س.	السعودية	10ريال
الأردن	1.5دينار	مصر	8جنيه
الكويت	750فلس	المغرب	15درهم
الإمارات	10دراهم	تونس	2دينار
قطر	10ريال	عمان	1ريال

ISBN 9953-15-198-9

هيلين بروكس

تعيش هيلين بروكس في (نورثامبتون شير) وهي متزوجة وأم لثلاثة أولاد. أوقات فراغها نادرة جداً، فهي متدينة ملتزمة وربة منزل منهمكة وأم مثالية. لكن هواياتها تشمل القراءة والسباحة والاهتمام بالحديقة والسير مع كلابها الصغيرة النشيطة التي تحبها كثيراً. حققت حلمها بالكتابة في سن الأربعين، وأرسلت أول إنتاج لها إلى (ميلز أند بونز).

١ ـ آنسة في محنة

ـ آه، لا... لا تفعلي هذا بي... أرجوك.

وأغمضت ماريغولد عينيها فانسدلت أهدابها الكثيفة الداكنة على بشرتها العسلية الناعمة، ثم عادت وفتحتهما وأخذت تحدّق أمامها: «ما الذي تفعلينه بي يا ميرتيل؟ إننا بعيدتان أميالاً عن أماكن السكن، والجوّ عاصف. لا يمكنك أن تغضبي الآن... لم أكن أعني ما قلته حين وصفتك قبل مسافة ميل أو ميلين بأنك سيئة الطبع».

لم يصدر عن السيارة الأثرية الصغيرة سوى صوت أشبه بسعال بسيط. لكن ماريغولد علمت أن ميرتيل لن تتحرك من مكانها بعد الآن، عندما استقرت العجلات على الثلج الذي بلغت سماكته إنشين وغطى الطريق أمامها.

عظيم، عظيم تماماً... وأخذت تحدق إلى الثلج المتساقط الذي غطى زجاج السيارة الأمامي بعد أن توقفت المساحتان عن العمل. بعد ساعة سيعمّ الظلام وهي تقف وحدها وسط مكان مجهول. لا يمكنها البقاء في السيارة خشية أن تتجمد حتى الموت هنا إذا لم يأت أحد لإنقاذها، فهي لم تعد تلمح أثراً لأي منزل أو مكان مأهول منذ مسافة ليست بقصيرة.

مدّت يدها تنتزع الخريطة التي كانت ترشدها إلى الطريق المؤدي إلى «كوخ السكر» متسائلة عما إذا كانت قد أخطأت في الاتجاه. واطمأنت إلى أن الأمر لم يكن كذلك. كما أن إيما أنذرتها بأن الكوخ بعيد، وهذا ما أرادته ماريغولد بالضبط. لو أن بإمكانها فقط أن تصل إلى ذلك المكان.

www.elromancia.com

ألقت نظرة على الخريطة مرة أخرى وهي تفكر بالمسافة التي يتوجب عليها أن تقطعها بعد لتصل إلى الكوخ. قطبت حاجبيها فوق عينيها البنفسجيتين الملبتين بالحيوية. آخر مبنى تجاوزته قبل مسافة عشرة أميال هو ذلك المقهى الذي غطى القش سطحه، إلا أنها قطعت منذ ذلك الحين حوالى... ونظرت إلى الخريطة متفحصة، ربما مسافة ميلين أو أقل قبل أن تنعطف من الشارع الرئيسي إلى طريق الريف، لتقطع بعد ذلك عدة أميال في طريق وعرة. ربما لم يعد الكوخ بعيداً جداً. على أيّ حال لم يعد أمامها خيار سوى قطع المسافة سيراً على الأقدام.

تأوهت من أعماقها قبل أن تلتفت إلى المقعد الخلفي حيث وضعت حقيبة ظهرها الجامعية القديمة وفيها حذاؤها الطويل ومعطفها الواقي من المطر، ذلك المعطف الذي يكاد يصل طوله إلى أصابع قدميها. كما وضعت أيضاً في الحقيبة مصباحها اليدوي بعد أن ألحت عليها إيما لأن الكوخ منفرد عن بقية المساكن وبعيد عن الطريق العام... وقد حذرتها إيما من انقطاع التيار الكهربائي بصورة مستمرة خلال فصل الشتاء.

أخبرتها إيما أن هناك منزلاً فخماً في الناحية المقابلة من الوادي، لكن الكوخ الصغير الذي ورثته عن جدتها في الربيع الماضي بعيد بما يكفي لكي يشعر الشخص أنه منعزل عن العالم الخارجي.

أخذت ماريغولد تشجّع نفسها بحزم وهي ترتدي معطفها الصوفي السميك وفوقه المعطف الواقي من المطر.

ما من هاتف أو تلفزيون في الكوخ في الوقت الحالي. فهذا ما أخبرتها به إيما وهي تعرض عليها الكوخ لتستعمله أثناء عطلة عيد الميلاد... لأن جدتها كانت ترفض ادخال أي من هذه الاختراعات العصرية «المشبوهة» إلى الكوخ الذي يغطي سطحه القش! كانت العجوز تخبز خبزها بنفسها، وتربي بضع دجاجات وبقرة في المرعى القريب منها. وبعد أن مات زوجها بقيت وحدها في بيتها حتى رحلت بسلام أثناء نومها وهي في الثانية والتسعين من العمر. تمنت ماريغولد لو أنها تعرفت إلى جدة إيما تلك.

راحت تملأ حقيبة ظهرها بأكياس البقالة المكوّمة على مقعد السيارة بجانبها. عليها أن تترك خلفها حالياً حقيبة ثيابها وكل شيء آخر. إذا تمكنت من الوصول إلى الكوخ هذه الليلة فستسوي أمورها غداً بشكل ما. لو لم تترك هاتفها الخلوي في شقتها في لندن لكان الأمر مختلفاً الآن. لكنها كانت قد اجتازت معظم الطريق إلى هنا عندما تذكرت أنها نسيته بالقرب من سريرها في البيت، والوقت فات حينها على العودة لإحضاره.

آخر ما قامت به قبل أن تترك سيارتها هو دسّ الخريطة التي ترشدها إلى «كوخ السكر» في جيبها، ثم نزلت من السيارة وأقفلتها لتنطلق في طريقها.

الوصول إلى الكوخ أثناء عاصفة ثلجية لم يكن شيئاً يذكر مقارنة مع ما عانته في الأشهر الأخيرة، هكذا حدثت ماريغولد نفسها. سيكون عيد الميلاد هذه السنة خارجاً عن المألوف، ومختلفاً بكل تأكيد عن ذلك الذي كانت ستمضيه مع دين. لا شك أن دين يستمتع الآن مع تامارا بشمس الشاطىء الكاريبي.

وكانت هي قد اختارت هذه الجزر كوجهة لهما في شهر العسل قبل أن يفترقا. لم تصدق أذنيها حين أخبرها أنه سيأخذ تامارا في إجازة إلى المكان الذي اختارته بنفسها لقضاء شهر عسلهما. فقد شعرت أنّ في ذلك خيانة تفوق كل تلك الأكاذيب التي صدرت عن دين.

عندما لمّح أحد أصدقائهما إلى ما يجري بينه وبين تامارا، شعرت برغبة في الذهاب إلى منزله لتسدد ضربة موجعة إلى فكه. إلا أنها لم تقم بذلك طبعاً. بل لاذت بالعزلة والصمت منذ ألقت بخاتم الخطوبة في وجهه وهي تخبره أي مخلوق وضيع هو.

شعرت بالدموع توشك أن تسيل من عينيها ما جعلها تصرف بأسنانها. فقد أصبح انهمار دموعها أمراً مألوفاً في الفترة الأخيرة. لا مزيد من البكاء... لا مزيد من النواح على ما مات وانتهى. تعهدت لنفسها بذلك منذ أسبوعين، وهي تفضل الموت على أن تعود عن قرارها هذا. لم تعد ترغب بأي علاقة مع الجنس الآخر في المستقبل المنظور. وإذا وجدت أن

الكوخ يقع حقاً في الغابات البعيدة على العمران كما قالت إيما، فستعرض عليها أن تشتريه منها الآن. فقد أخبرتها إيما أنها ستعرضه للبيع في مطلع السنة الجديدة.

بدأت ماريغولد تسير غير واعية لقطع الثلج التي تتطاير حولها كأفكارها. منذ انفصالهما، هي ودين، في نهاية الصيف، أدركت أنها تحتاج إلى تغيير كامل في أسلوب حياتها.

ولدت ماريغولد ونشأت في لندن، ثم التحقت بالجامعة لدراسة الفنون. في السنة الأخيرة من دراستها بدأت بالخروج مع دين. وبعد انتهاء دراستها وجدت وظيفة براتب جيد في شركة صغيرة مختصة بالفنون التخطيطية. وعندما قررت الشركة تنويع إنتاجها لتصدر كل أنواع بطاقات المعايدة، نالت ماريغولد ما تستحقه من تقدير بسبب معلوماتها الشاملة عن العمل والتي اكتسبتها أثناء سنوات تدريبها فأصبحت تعمل بمفردها وشعرت بالسعادة لذلك. في ذلك الوقت بالتحديد عرض عليها دين الزواج... كان ذلك منذ أحد عشر شهراً. يومها ظنت أن مستقبلها قد استقر إلى أن ظهرت تامارا جيمس على مسرح الأحداث.

وكأن التفكير في الفتاة الأخرى أصابها بالنحس إذ سرعان ما وجدت نفسها ملقاة على الأرض بعد أن تعثرت قدمها بفجوة في الطريق الوعر. خفف الثلج من حدة سقوطها إلى حد ما، لكن عندما حاولت الوقوف ثانية، تبين لها أنها لوت كاحلها ما جعلها تكشر من الألم. تبددت كل الأفكار التي كانت تدور في رأسها حول إيجاد استديو صغير في مكان بعيد، حيث يمكنها أن تعمل بحرية لشركتها الحالية أو لسواها. سارت مدة عشر دقائق وهي تعرج قبل أن تسمع صوتاً سحرياً لسيارة خلفها. بدا لها وكأنها تسير منذ عشر ساعات لشدة الألم في قدمها.

كان ضوء النهار مازال ساطعاً، ومع ذلك دست يدها في حقيبة ظهرها وأخرجت مصباحها الكهربائي، منتقلة إلى جانب الطريق المغطى بأكوام الثلج. لم تستطع أن تجازف بأن يغفل عنها سائق السيارة القادمة في مثل هذا

الجوّ القاسي.

كانت السيارة الضخمة ذات قوة الدفع الرباعية تخترق الثلوج بغطرسة ملوكية. رآها السائق حتى قبل أن تضيء مصباحها وتلوّح به بذعر.

ـ آه، شكراً، شكراً.

كادت تقع مرة أخرى وهي تعرج متعثرة لتصل إلى النافذة المفتوحة بجانب السائق: «تعطلت سيارتي ولا أدري كم يتوجب علي أن أسير بعد، ثم وقعت ولويت كاحلي...».

ـ لا بأس، تمهلي، تمهلي.

لم تكن اللهجة الباردة العديمة الصبر ما لفت انتباهها، بل وسامة هذا الرجل الأسمر الضخم الجالس خلف المقود. بدا ذا وسامة خشنة نوعاً ما، لكن عينيه الرماديتين الباردتين اللتين تشبهان حجر الصوان في قوتهما جعلتاها لا تعرف ما تقول.

ـ إذاً، تلك السيارة المتوقفة هناك هي سيارتك ما يعني أنك ذاهبة إلى كوخ السكر.

حملقت فيه ماريغولد بغباء: «أحقاً؟ ولماذا؟».

ـ لأنه البيت الوحيد في الوادي بالإضافة إلى بيتي. لذا، لا بد أنك إيما جونز، حفيدة ماغي.

بدا صوته وهو يقول ذلك بارداً كالثلج.

ـ أنا...

ـ علمت أنك جئت مرة لرؤية الكوخ عندما كنت خارج البلاد، وأسفت حينذاك لأن رؤيتك فاتتني.

مع أن هذه الكلمات بدت ودودة في ظاهرها لكن اللهجة التي قيلت بها لم تكن كذلك على الإطلاق. وطرفت ماريغولد بعينيها إزاء هذا العداء الظاهر.

وقال الرجل بحقد ناعم: «عاهدت نفسي يومها أن أخبرك رأيي بأسرتك ما إن تسنح لي الفرصة لذلك».

ـ اسمي مورو.

ـ إسمع يا سيد مورو، أظن أنّ عليّ أن أوضح...

ـ توضحين؟

كانت ماريغولد قد سمعت عن مواقف يتمكن فيها شخص ما من تجميد شخص آخر إلى حد يجعله عاجزاً عن الكلام، لكنها لم تختبر ذلك قبل الآن. تحرك الرجل في مكانه قليلاً، وعندما نظر إليها كانت عيناه الرماديتان قد تحولتا إلى اللون الفضي وهو يتابع ببرودة:

ـ توضحين ماذا؟ السبب الذي منع أفراد أسرتك، بمن فيهم أنت، من أن يأتوا لزيارة سيدة عجوز خلال الإثني عشر شهراً التي سبقت موتها؟ هل افترضتم أن رسالة أو اثنتين، أو مكالمة هاتفية بين حين وآخر إلى البقال الذي يرسل إليها البقالة كل أسبوع، كافية لإرضائها؟ الرسالة التي تمر من شخص لآخر إلى أن تصل إليها لا يمكن أن تقارن بالاهتمام الشخصي يا آنسة جونز. آه، أنا أعلم أنها كانت صعبة وعنيدة وقاسية الكلام إلى حد يجعلك ترغبين بشنقها، ولكن ألم يدرك أي منكم أنّ اللهفة إلى الاستقلال والكبرياء يكمنان خلف ذلك؟ كانت عجوزاً في الثانية والتسعين من عمرها، بحق الله! ألا يملك أي منكم إحساساً أو بُعد نظر ليدرك أنها، خلف غرابة أطوارها، كانت متلهفة إلى أن يخبرها أحد بأنها ما زالت امرأة عزيزة محبوبة؟

ـ يا سيد مورو...

تابع بعنف: «ولكن كان من الأبسط والأسهل بالنسبة إليكم أن تمحوا ذكرها بصفتها عنيدة، وبذلك يمكنكم جميعاً متابعة حياتكم الحسنة المنظمة بضمائر نظيفة غير ملطخة بالعار».

بدأ الغضب يغلي داخل ماريغولد بسبب غطرسته ورفضه إعطائها فرصة للكلام. بدا واضحاً أنه يغلي غضباً لما اعتبره إهمالاً من أسرة إيما نحو تلك العجوز لمدة طويلة جداً، لكنه لم يعطها فرصة توضح له فيها من هي وماذا تفعل هنا.

ـ أنت لا تفهم. أنا لست...

ـ مسؤولة؟

مرة أخرى قاطعها وعيناه تلمعان كالزجاج المصقول: «من السهل جداً الفرار من المسؤولية يا آنسة جونز. قد يناسبك أن تحيطي نفسك بجوّ أنثوي برىء في وضعك الحالي، لكن هذا لن يخدعني، لثانية واحدة! وبينما أنت تفكرين في ما ستربحينه من بيع بيت جدتك، ذلك البيت الذي كافحت طويلاً في سبيل الحفاظ عليه، أذكرك بأن عليك أن تفكري بمقدار التعب والعرق والدموع التي بذلتها المسكينة لكي تبقى هنا طوال حياتها. فبسببك أنت وأفراد أسرتك التعيسة، ذرفت العجوز المسكينة الكثير من الدموع. فلا تخدعي نفسك بمحاولة التهرب من المسؤولية.

قالت ماريغولد وقد شعرت برغبة في ضربه: «ليس لديك الحق في أن تتحدّث إليّ بهذا الشكل».

ـ لا؟ ألست أنت من تتشوق إلى بيع رمز كرامة العجوز، البيت الذي جاهدت طويلاً لكي تحتفظ به؟

فتحت ماريغولد فمها لكي ترد عليه بجواب مناسب لكن سرعان ما خطر في بالها أن هذا فعلاً ما كانت إيما تنوي أن تفعله، فأفحمها هذا. راح الرجل يحدّق إليها بنظرة حادة مهلكة: «هذا ما ظننته. لا أصدق أن دم تلك السيدة العجوز الشجاعة نفسه يجري في عروق امرأة مثلك. بصراحة، أنت وبقية أفراد أسرتك لا تستحقون أن تلعقوا حذاءها».

حدقت ماريغولد إليه من خلال رقع الثلج المستقرة على رموشها وأوشكت أن تخبره بأن لا صلة لها بجدة إيما، ولا يجري في عروقها الدم نفسه. لكن الغضب الذي يغلي في داخلها تفجّر الآن. فليظن ما يريد، هذا المتغطرس! إنها تفضل أن تجاهد في سيرها طوال الليل على أن تطلب منه العون أو تشرح له أنه مخطىء. هذا الرجل مخيف رغم صحة ما قاله. حسناً، يمكنه أن ينطلق في طريقه بسيارته الفخمة الدافئة، فهي لن توضح شيئاً لهذا المتعفن المهترىء...

ـ أليس لديك ما تقولينه، يا آنسة جونز؟

انتصبت ماريغولد بقامتها البالغة من الطول مئة وستين سنتيمتراً. لم تتمنّ قط من قبل لو أن قامتها أطول بخمسة عشر سنتيمتراً كما تتمنى الآن.

أجابته قائلة: «أبداً، كنت فقط أتساءل عما إذا كان شخص مقزز مثلك يستحق أن أضيّع الوقت بالحديث معه، وهذا كل شيء».

لوى شفتيه بشبه ابتسامة قاسية وقال: «أحقاً؟ وماذا قرّرت؟».

حملقت فيه وقد تألقت عيناها الزرقاوان بقوة، بسبب اضطراب مشاعرها. ثم استدارت لتكمل طريقها، محاولة ألا تعرج بالرغم من الألم المبرّح في كاحلها. وبدا أن الألم قد ازداد بعد أن أراحت قدمها لعدة لحظات.

سمعت صوت هدير المحرّك خلفها، وتوقعت أن تمرّ السيارة بجانبها عبر الثلج المتساقط. لكن السيارة تمهلت في سيرها ما إن أصبحت بمحاذاتها، مجارية مشيتها العرجاء. عضّت شفتها بشدة لكنها لم تحوّل وجهها عن البساط الأبيض الذي يمتد أمامها.

قال لها الرجل بصوته الكريه: «قلت إنك وقعت ولويت كاحلك».

تجاهلته وهي تكاد تنفجر باكية.

ـ إصعدي.

بدت في صوته نبرة واضحة من نفاد الصبر لكنها تجاهلته مرة أخرى، ونظراتها متجهة إلى الأمام بحزم.

ـ يا آنسة جونز، عليّ أن أخبرك أنك محظوظة للغاية. فلو لم يكن لديّ موعد ضروري اليوم لما خرجت من المنزل هذا الصباح. ولا أحد غيري يمرّ على هذا الطريق، بينما الكوخ ما زال بعيداً مسافة ميل آخر على الأقل. هل أنا بحاجة إلى أن أقول المزيد؟

فأجابت وهي تصرف بأسنانها: «إذهب إلى الجحيم!».

سادت بينهما لحظة صمت، ثم قال لها ببطء واستخفاف: «في حالتنا هذه، يحتمل أن يحدث ذلك لك وليس لي. هيا، اصعدي إلى السيارة يا آنسة جونز ودعينا ننهي هذه المسرحية. ربما لا يرضيك أن تسمعي الحقيقة ولو مرة واحدة في حياتك، لكنك كبيرة بما يكفي، وأنا واثق من أنك صلبة

وقادرة على التحمّل».

ـ أفضل أن أتجمّد حتى الموت على أن أقبل مساعدتك.

والتفتت لحظة إليه تواجه عينيه الرماديتين الغاضبتين بتمرّد.

ـ هذه سخافة منك.

ـ حسناً، هذه صفة أخرى تضيفها إلى قائمة ذنوبي، أليس كذلك؟

ـ اصعدي إلى السيارة.

ونسيت ماريغولد نفسها وراحت تستعمل الشتائم كما لم تستعملها في حياتها من قبل. أيظن هذا الرجل أن بإمكانه أن يصدر لها أوامره، ويخبرها بما عليها أن تفعله بعد أن حدّثها بتلك الطريقة؟ حسناً، ربما يظنها إيما، لكنه يعرف أنها كانت تطلب العون، وأن كاحلها مصاب بالتواء، ومع ذلك تركها واقفة تحت الثلج المنهمر وأخذ يلقي عليها محاضرة عن مسؤولياتها العائلية. لا شيء.. نعم لا شيء يمكنه أن يقنعها بقبول أي نوع من المساعدة من هذا المتكبّر.

ـ لا تجعليني أرغمك على الصعود إلى السيارة، يا آنسة جونز.

صاحت به هازئة: «أتظن أن بإمكانك القيام بذلك؟».

ـ آه نعم.

قال هذا ببرودة وهدوء وفي صوته شيء من الوعيد. لكن الازدراء الذي رافق كلماته والغطرسة التي ظهرت منه أثارا غضب ماريغولد ما جعلها تستمر في سيرها رافعة رأسها المغطى بقبعة المعطف الواقي من المطر.

إذا تجرأ ووضع عليها إصبعاً.. إصبعاً فقط، فسوف يواجه موقفاً لم يكن يتوقعه.

أخذت تفكر في ذلك وهي تتابع سيرها بصمت بينما عادت السيارة تسير بمحاذاتها.

ـ كانت جدتك امرأة فريدة من نوعها.

تجاهلته ماريغولد كلياً.

ـ من أجلها، لا أنوي أن أترك ابنة ابنها الوحيدة تتجمّد، وإن كان هذا

ما تستحقينه بالضبط.

ـ كيف تجرؤ!

حملقت فيه مرة أخرى وقد ضاقت عيناها وراحتا تقذفان لهباً أزرق. لكن شفتيها بدتا شاحبتين من الألم الذي تحاول أن تخفيه، كما ظهر على وجهها شحوب الموتى. حدق إليها لحظة، فاستوعبت عيناه الثاقبتان ما تعانيه من ألم. عندئذ، تأوه بضيق قبل أن يقفز من سيارته بشكل مفاجىء باغتها. ولم تشعر إلا وهو يحملها بين ذراعيه وكأن لا وزن لها على الإطلاق.

ـ ما الذي تفعله بحق الله؟ أتركني فوراً!

أخذت تقاومه بعنف وهو يضمها إلى صدره الصلب.

ـ اهدئي.

تمتم بذلك ساخطاً وهو يدور حول السيارة ليضعها في المقعد الأمامي بشيء من الخشونة. وعلى الفور حاولت ماريغولد أن تندفع إلى الخارج، وإذا بها تمسك بكاحلها المصاب وتصرخ من الألم من دون وعي.

فصرف بأسنانه: «أحذرك يا آنسة جونز، لديّ حبل في الخلف وأنا على استعداد لأن أربطك به من دون تردد، هل فهمت؟ ستجلسين هنا بهدوء حتى نصل إلى كوخ ماغي. بعدئذ، سأكون مسروراً بأن أتخلص منك وهكذا أكون قد أتممت واجبي».

ـ أنت حقير!

هذا كل ما استطاعت قوله بسبب الألم الذي أصبح الآن شديداً، بالإضافة إلى الصدمة التي تملكتها في اللحظات الأخيرة. لا بد أن طول هذا الرجل يبلغ مئة وتسعين سنتيمتراً.

اقتنعت ماريغولد بأن ليس لديها القدرة على قتال هذا الرجل القوي. أما وسامته فبدت عنيفة من دون أيّ أثر للرقة فيها على الإطلاق.

كان الرجل يرتدي كنزة صوفية سميكة، وقد بدا وجهه الذي لوّحته أشعة الشمس داكن السمرة وملامحه فبدت تقاسيمه وسيمة للغاية. أما عيناه الرماديتان الفضيتان فبدتا أكثر بروزاً تحت حاجبين أسودين وشعر فاحم

تدلت إحدى خصلاته على جبينه.

إنه.. حسناً، إنه مذهل تماماً، كما أخذت ماريغولد تفكر بضعف بعد أن صفق باب السيارة بجانبها.

أخذت تنظر إليه وهو يدور حول السيارة ثم يصعد إليها. فانكمشت في مقعدها من دون وعي وهو يجلس بجانبها خلف المقود.

لم يظهر عليه أنه لاحظ حركتها الغريزية تلك. انطلق بالسيارة، إذ لم يقم بإطفاء المحرك حين نزل منها. وقال: «هل رتبت أمر إرسال الطعام والوقود إليك في الكوخ؟».

لا، فماريغولد لم تكن تعلم أن بإمكانها ذلك. وإيما لم تذكر لها هذا الأمر عندما عرضت عليها قضاء إجازة الأعياد في كوخها. منذ أسبوعين، أخبرت ماريغولد صديقتها أنها تكره طريقة أسرتها المبالغ فيها في الاحتفال مع أن والديها يستمتعان بذلك.. إذ يمتلىء منزلهما الفخم بالأصدقاء والأقارب خلال إجازة رأس السنة، فيغدو أشبه بالمضافة.

في العادة، يبدو الأمر رائعاً. ولكن، بما أنها فسخت خطبتها وألغت عرسها منذ فترة قريبة، فإن مشاركتها في هذا الاحتفال لم تبد لها فكرة حسنة. سيحاول الآخرون أن يكونوا لبقين معها، وكأنهم يدوسون على البيض... وستشعر بتعاطفهم واشفاقهم عليها... مسكينة... مسكينة ماريغولد! إلى ما هنالك.. وعندما أخبرت صديقتها أن والديها يتوقعان منها أن تذهب إلى البيت لقضاء فترة الأعياد، سألتها إيما: «لماذا لا تخبريهما أنك ستقضين فترة الأعياد برفقة صديقة لك في كوخ رائع، فيه مدفأة حطب وكل ما يحتاجه المرء للاحتفال بالعيد؟ أنا أفهم قلقهما حيال بقائك وحدك في شقتك. ولكن إذا قلت لهما إنك ستذهبين مع صديقة لك... على أيّ حال سألحق بك بعد انقضاء العيد بيومين لأكتب قائمة بالأثاث والأغراض الأخرى، وبهذا لن يكون ما تقولينه كذباً في الواقع».

نبذت ماريغولد من رأسها ما يذكرها بأنها تدّعي أنها إيما. وأجابت الرجل الذي يجلس بجانبها باختصار: «لا. لم أفعل».

ـ ومتى استعمل الكوخ آخر مرة؟

لم تكن تعرف ذلك أيضاً. فكرت بسرعة ثم قالت: «مؤخراً».

فقال ببرودة: «هل مؤخراً تعني أشهراً أم أسابيع؟».

أرادت أن تقول له أن يهتم بشؤونه الخاصة ولكن نظراً للظروف الحالية لم يبد هذا ملائماً. وتذكرت أن إيما قالت لها ذات مرة إن الكوخ قد يكون رطباً بارداً في الشتاء لأنها لم تزره سوى في الصيف فقالت: «أشهراً».

أوماً ولم يضف أي كلمة ثم ركز اهتمامه على الطريق أمامه. لم يكن يظهر من الطريق سوى سحب من قطع الثلج تدور بسرعة.

بدا المشهد خيالياً كما في الحكايات من داخل السيارة المريحة الدافئة هذه. واعترفت ماريغولد لنفسها بارتياحها الشديد لأنها لم تعد مضطرة لمكافحة ما كان يستحيل بسرعة إلى عاصفة ثلجية. ومع اعترافها هذا شعرت بوخزة من الندم لسوء طبعها، قبل أن تذكّر نفسها بأن ليس عليها أن تشعر بالذنب! فقد خرج حديث هذا الرجل معها عن حدود التهذيب... حتى ولو كان يعتقد أنها إيما. ومهما كان مقدار حبه واحترامه للعجوز، فذلك لا يعطيه الحق في التهجم عليها كما فعل.

جازفت بإلقاء نظرة جانبية بطيئة عليه من تحت أهدابها، واعية إلى أن المياه تتساقط من معطفها الواقي على المقعد وأن الثلج الذائب من حذائها شكل بحيرة تحت قدميها.

بدا وجهه صلباً وكأنه قُدَّ من صوان.

وفجأة، انتبهت ماريغولد إلى أنها الآن تحت رحمة هذا الغريب العنيف، فابتلعت ريقها.

ـ لا داعي لكل هذا التوتر، فأنا لن أمسّ حفيدة ماغي بأي أذى. يمكنك أن تسترخي فلا أنوي سلبك أو الاعتداء عليك.

تخلل ذلك الصوت العميق نبرة تدل على التسلية، فأحست ماريغولد وكأن طعنة أصابتها في ظهرها. تراجعت إلى الخلف في مقعدها، وتوهج وجهها الذي كان منذ لحظة شاحباً، وقالت كاذبة بصوت حاد:

ـ هذا بعيد كل البعد عن أفكاري.

صدر عنه صوت خافت مثقل بعدم التصديق.

يا له من رجل مقزز! وزمّت شفتيها اللتين تبدوان عادة ممتلئتين، فأصبحتا خطاً واحداً، وحذّرت نفسها من أن تجيب على سخريته هذه. بعد فترة قصيرة سيصلان إلى الكوخ فيرحل عنها. عندئذ، ستغسل قدمها وتربطها، ثم تتدبر أمر منامتها. هذه العاصفة الثلجية لن تستمر إلى الأبد، وعند الصباح ستتوجه إلى سيارتها ميرتيل وتحاول إحضارها وإلا... حسناً، ستحضر الأغراض إلى الكوخ بنفسها... بشكل ما. لم تفكر كثيراً في كيفية نقل حقيبة ثيابها وأكياس الطعام، بالإضافة إلى الفحم والأغراض الأخرى التي أحضرتها معها. كان الثلج يزداد تراكماً وكاحلها يزداد ألماً مع مرور الوقت. كما أصبح الآن متورماً بحيث تساءلت إن كان بإمكانها أن تخلع حذاءها.

كانت الطريق قد بدأت بالانحدار منذ النقطة التي سمعت فيها صوت السيارة تقريباً. والآن، وبعد أن استدار حول المنعطف في الطريق المتعرج، رأت ماريغولد أنهما وصلا إلى وادٍ مكسوّ بالغابات فلاح لها من بعيد ما يمكن أن يكون كوخ إيما. كان على بعد حوالى خمسين ياردة من الطريق تحيط به حديقة مسيّجة.

كان الكوخ مطلياً باللون الأبيض وقد بدا سطحه الحجري الأكثر بروزاً في عاصفة الثلج هذه.

تنهدت بارتياح، وحركت كاحلها المصاب باحتراس عالمة أن عليها أن تخرج من السيارة ثم تسير إلى باب الكوخ خلال ثوانٍ. تملكها القلق وهي تشعر بأول طعنة ألم، لكنها حدثت نفسها مرة أخرى بأنه سيصبح على ما يرام حالما تربطه.

قال الرجل بلهجة لاذعة: «هوذا إرثك».

فاستدارت تنظر إلى جانب وجهه القاسي، وسألته بهدوء: «ما الذي جعلك تعتقد أنه معروض للبيع؟».

ـ حسناً. عدا عن أنك وأسرتك لم تظهروا أي اهتمام به، فقد سمعك البعض تتحدثين عن ذلك بين الناس عندما جئت من قبل.

فسألته باشمئزاز واضح: «أولئك الذين يسترقون السمع إلى الأحاديث الخاصة، ثم يذيعونها بين الآخرين؟»

هزّه قولها هذا كما يبدو: «مما سمعته، هذه «الأحاديث الخاصة» لم تكن سراً. بل صرحت بها أنت ورفيقك بصوت مرتفع. إذا لم تريدي أن يسترق الناس السمع إلى أحاديثك فأخفضي صوتك. كما أن التعليقات عن «الفلاحين الأجلاف» لا تكسبك أصدقاء في هذه الأنحاء أيضاً».

منذ تعرفت إيما إلى صديقها الحالي، ذلك الشاب البالغ الغرور، الدائم التجوال بسيارته الرياضية، تغيّرت كثيراً.

كانت السيارة، لحسن الحظ، قد توقفت لتوّها أمام بوابة الحديقة الصغيرة ما وفّر عليها جهد البحث عن جواب. تنفست بعمق وهي تدعو الله أن ينتهي كل هذا في الحال، وألا تضطر إلى رؤية هذا الرجل بعد الآن: «شكراً لأنك أوصلتني».

قالت هذا بجفاء، بينما راحت قطرات الماء تتساقط من قبعة المعطف فوق أنفها.

ردّ عليها بتهكم بالغ وهو يساعدها على تعديل حقيبة ظهرها، بعد أن نزل من السيارة متجهاً إلى ناحيتها ليفتح لها الباب: «بكل سرور».

أدهشها تهذيبه هذا، خصوصاً بعد ما كان من حديثهما. وزاد في ارتباكها، جاذبيته السمراء التي حاولت تجاهلها في الدقائق الأخيرة. كانت تود أن تتجاهل يده الممدودة أيضاً لكن نظراً لشدة الألم في كاحلها قررت أن تلزم الحذر وهي تنهض واضعة كل ثقلها على قدمها السليمة.

كانت قد خلعت قفازيها المبللين ودستهما في جيبها. وضعت يدها الصغيرة في يده الضخمة، وإذا برجفة صغيرة غير مرغوب فيها تسري في كيانها. ترددت لحظة وهي تتساءل كيف ستتمكن من النزول على كاحلها المصاب وعما إذا كان عليها أن تستند إليه الآن لكي تستطيع النزول على

القدم السليمة.

سألها بفتور: «ما مدى الألم الذي تشعرين به؟».

يبدو أنه لاحظ ترددها وتكهن بسببه. رغبت في اقناع هذا الرجل الفظ، العديم الرحمة بأنها بأتم خير ولم تعد بحاجة إلى عونه ولو لدقيقة واحدة، فنزلت من السيارة، آملة أن يتحمل كاحلها ثقلها خلال تلك اللحظة القصيرة التي تحتاجها لنقل ثقلها إلى القدم السليمة. وخاب أملها.. ترنحت من جانب إلى آخر عدة لحظات وهي تشعر بألم لا يُحتمل. كان الرجل لا يزال ممسكاً بيدها، فتأرجحت وكأنها دمية مصنوعة من الخِرق، فيما وقعت قبعتها عن رأسها وهي تندفع نحوه. وكاد هو أيضاً يفقد توازنه لكنه تماسك في الوقت المناسب ثم ضمها إليه في ثوان.

لطالما أزعجها شعرها المنسدل الحريري الناعم، الذي يرفض أن يتجعد أو يرتفع فوق الرأس بأناقة وجمال. أما الآن، عندما سقط فوق وجهها متأرجحاً، فقد تملكها السرور لهذا الستار الذي أخفى وجهها.

راح مورو يشتم بصوت خافت. عندما هدأ العالم من حولها وتلاشى صوته، هدّأت نفسها وأعادت خصلات شعرها إلى الخلف ونظرت إليه.

كان هو أيضاً ينظر إليها ووجهه لا يبعد عن وجهها سوى بضع إنشات. رأت أن فمه أكثر جمالاً مما ظنته للوهلة الأولى، وقد أضافت الخطوط المحفورة على بشرته السمراء عمقاً إلى وسامته. كما أن أهدابه، التي لم تلاحظ من قبل مدى طولها وكثافتها، أضفت على وجهه جمالاً مميزاً.

شعرت ماريغولد بأعصابها تخزها، وأنذرها شعور غامض من البقاء بين ذراعيه، فأبعدت جسمها قليلاً عنه وهي تقول لاهثة: «أنا بخير الآن.. أنا آسفة. لقد زلت قدمي فقط...».

ـ هل يمكنك أن تمشي؟

كانت عيناه تنتقلان بين شعرها وعينيها البنفسجيتين، كما بدت في صوته نبرة غامضة لم تسمعها فيه من قبل فسببت لها إحساساً غريباً أرسل الاضطراب في كيانها.

ـ نعم، نعم.

حاولت أن تبرهن له ذلك بتخليص نفسها منه، ومحاولة السير ولو خطوة واحدة، لكن الذعر تملكها عندما أدركت أن تلك الفترة القصيرة التي أمضتها من دون حركة في السيارة جعلت ألم الكاحل أسوأ بأضعاف مما كان عليه من قبل.

إبيضّت شفتاها ألماً، وإذا بمورو يطلق شتيمة أخرى ويحملها بنفس السهولة التي حملها بها على الطريق. احتضنها إلى صدره القوي بشدة للمرة الثانية وسار بها إلى البوابة التي رفسها من دون أي اعتبار لممتلكات إيما وتابع السير على الممر المغطى بالثلج إلى الباب الأمامي.

لم ينظر إليها مرة أخرى إلى أن وصلا إلى الباب، ثم قال باختصار: «المفتاح؟».

ـ ماذا؟

رأت ماريغولد شفتيه تتحركان، وسمعت الصوت، ولكن لأمر ما، لم تفهم ما يقول. كانت واعية لاحتضانه لها، ولشخصيته المتحكمة القوية وللرائحة الحلوة الغامضة لعطر ما بعد الحلاقة الذي يضعه. وبهت كل شيء آخر في نظرها.

ـ المفتاح، للباب.

قال هذا بصبر وبنبرة هازئة جعلتها تستيقظ من ذهولها، وكأنما دلواً من الماء البارد قد انسكب عليها.

وتوهج وجهها: «آه، نعم، طبعاً. عليك أن تضعني على الأرض. إنه في جيبي ولا يمكنني أن أصل إليه».

ـ قفي على قدم واحدة وسأمسكك. ولا تحاولي أن تمشي إلا بعد أن نلقي نظرة على ذلك الكاحل.

نلقي..؟ نلقي..؟ لو لم يكن نبضها يتسارع بجنون، وحلقها جافاً بشكل غريب لتحدّته لقوله «نلقي» بالجمع. ولكنها بدلاً من ذلك وقفت في وضعية تشبه وضعية طائر الفلامنغو البحري. أنزلها إلى الأرض برفق،

فأخذت تبحث عن المفتاح. كانت واعية بشكل هائل إلى يديه على خصرها. ورغم أنها حدثت نفسها بأنه مضطر إلى وضع يديه عليها لإسنادها، إلا أن ذلك لم يسكّن توترها.

بدا مورو بالغ الرجولة كما أخذت تفكر شاردة الذهن ليس فقط لأنه ضخم الجثة بل لأن جسمه يضج بالحياة. بدا طويلاً جداً، صلباً جداً ووسيماً، قوي العضلات. إنه في الواقع، كبير في كل شيء، بشكل يثير الاضطراب ويوتر الأعصاب إلى أقصى حد.

ـ ها هو ذا.

عدّل من وقفته قليلاً واضعاً ذراعه حولها يسندها إلى جسمه القويّ، وأخذ المفتاح من أصابعها الواهنة. حدثت نفسها بشكل محموم بأنه من السخافة أن تشعر بالاضطراب بسبب قربه منها بهذه الطريقة، فالرجل يحاول أن يساعدها في محنتها فقط.

عندما انفتح الباب، عاد يحملها ليدخلها إلى ردهة صغيرة مربعة حيث ضغط على زر الإنارة بجانب الباب. بدا واضحاً أنه يعرف طريقه في أنحاء الكوخ. أثبت لها هذا في اللحظة التالية عندما فتح باباً إلى يمينها وأضاء النور ثم دخل إلى غرفة جلوس مليئة بأثاث ثقيل قديم تفوح منه رائحة رطوبة كريهة. كان الجوّ خانقاً وبارداً للغاية. ووضعها على الأريكة أمام مدفأة خالية.

بدا منظر الكوخ أمامها فظيعاً. نظرت ماريغولد بيأس إلى بيتها المؤقت... إنه فظيع تماماً، وفي غاية البرودة. لا شك أن غرفة النوم باردة أيضاً كالثلج. ماذا يمكنها أن تفعل؟ ونظرت بطرف عينها إلى الرجل الذي كان واقفاً بجانبها، فإذا به ينظر إليها مقيماً حالتها بعدم ارتياح.

فقالت ببشاشة: «هذا جميل. حسناً، أظن أنّ بإمكاني أن أتدبّر أموري بشكل ممتاز الآن. شكراً، وأنا واثقة من أنك تريد أن تذهب إلى بيتك...».

ـ إبقي هادئة ريثما أشعل المدفأة. المكان أشبه بثلاجة لعينة. سنفحص

كاحلك بعد قليل.

واختفى من الباب تاركاً لها المجال لتنظم أفكارها. سمعت باباً آخر ينفتح ثم ينغلق فنادت بيأس: «يا سيد مورو! أرجوك، يمكنني أن أتدبّر أموري الآن. وأنا أفضل كثيراً أن أبقى وحدي. هل يمكنك أن تسمعني يا سيد مورو؟».

مضت دقيقة أو نحوها قبل أن يعود. بدا وجهه مكفهراً كالرعد، وقال: «لا يوجد فحم أو حطب في المخزن. هل كنت تعرفين ذلك؟».

قال هذا بلهجة الإتهام. خطر لها أن تخبره أن إيما وأوليفر أشعلا النار في المدفأة كل ليلة عندما كانا هنا... وقد قالت لها إيما بصوت كهديل الحمام: «كان ذلك شاعرياً جداً، يا عزيزتي. وأوليفر يعشق الأجواء الشاعرية».

لكن ماريغولد قالت: «هناك بعض الفحم في سيارتي».

ـ لكن سيارتك ليست هنا.

ـ يمكنني أن أحضره عند الصباح.

أغمض عينيه لحظة وكأنه لا يصدق أذنيه قبل أن يعود فيفتحهما ليسمّرها بنظراته وهو يقول: «يا إلهي من النساء! لسنا في وسط لندن كما تعلمين. فهنا لا يوجد كاراج لتصليح السيارات عند كل منعطف».

ـ أنا أعرف هذا تماماً.

قالت هذا بكبرياء قدر إمكانها. لكن ما لبثت كبرياؤها أن تلاشت حين أخذت أسنانها تصطك: «أرجو أن تكون ميرتيل بخير صباح غد».

ضاقت عيناه، وبدا على وجهه الداكن التأمّل، ثم قال ساخراً: «من هي ميرتيل هذه بحق الله؟».

فاحمر وجه ماريغولد: «إنها سيارتي».

ـ سيارتك؟ هذا حسن.

وتنفس بعمق ثم زفر ببطء وقال بصوت متمهّل: «وإذا قررت ميرتيل... ألا تتجاوب مع خطتك، فماذا سيحدث؟ وكيف ستسيرين على

تلك القدم؟ وماذا ستفعلين بالنسبة إلى التدفئة الليلة؟».

قررت ماريغولد أن تجيب عن السؤال الأخير فقط من الأسئلة الثلاثة التي طرحها عليها: «هذه الليلة سأتناول شراباً ساخناً ثم أنام».

ـ فهمت.

كان يقف منفرج الساقين وقد شبك ذراعيه على صدره، فأظهرت هذه الوقفة ضخامة عضلاته. ومن مكانها على الأريكة بدا لها ضخماً في تلك الغرفة الصغيرة المزدحمة: «دعيني أريك شيئاً».

وقبل أن تعترض انحنى ثم حملها مرة أخرى... يبدو أن حملها بين ذراعيه أصبح عادة لديه، كما أخذت ماريغولد تفكر متوترة الأعصاب وهو يسير خارجاً من غرفة الجلوس. دخل إلى غرفة أخرى، بدا واضحاً أنها غرفة النوم. وكانت الفوضى تعم في تلك الغرفة وقد بدا أثاثها مثيراً للضيق. فخزانة الثياب ضخمة وعتيقة، وطاولة الزينة أثرية والكرسيان الكبيران المصنوعان من الخيزران متداعيان، فيما وضعت عليهما وسائد متنوعة الأحجام. كانت هذه الغرفة أكثر برودة وإثارة للكآبة من غرفة الجلوس.

قال عابساً: «هذا الفراش يحتاج إلى ساعات من التهوئة قبل استعماله، حتى لو أحضرت معك ملاءاتك وبطانياتك. هل أحضرت معك كل ذلك؟».

قال هذا وهو ينظر إليها فشعرت بتأثير عينيه الفضيتين الرائعتين إلى حد خطف منها الأنفاس.

فكرت فجأة في أن هذا الرجل خطير... خطير بالنسبة إلى أي امرأة. فهو يتمتع بجاذبية مغناطيسية تفوق جاذبية الأرض. وقد شعرت هي بهذه الجاذبية حتى عندما راح يكلمها بقسوة بالغة في الطريق. وها هي القسوة تبدو في فمه الصلب ووجنتيه، هذا إلى ذقنه الحازم وعينيه الثاقبتين الحادتي النظرات. كلما أسرع في الرحيل من هنا كلما كان ذلك أفضل لراحة بالها ومشاعرها.

ـ حسناً؟

وأدركت متأخرة، أنها كانت تحدّق إليه كأرنب مخدر الحواس. هزت رأسها بسرعة وقد احمرت وجنتاها: «لا... أعني لم أظن أنني سأحتاج إلى أي شيء يتعلق بالفراش هنا».

قالت هذا بسرعة. وما هي إلّا لحظة حتى استدار خارجاً إلى غرفة الجلوس حيث ألقاها على الأريكة مرة أخرى.

- كانت جدتك تبقي النار مشتعلة بصورة دائمة في غرفة الجلوس بدءاً من تشرين الأول حتى أيار. عندما كانت على قيد الحياة كان الكوخ يبقى دافئاً كالخبز المحمص على الدوام. لكن هذا المنزل قديم وجدرانه سميكة، وليس كمعلب المدينة ذات الجدران المفرغة والتدفئة المركزية.

إنه يتكلم مرة أخرى بلؤم ولهجة لاذعة. حاولت أن تظهر استياءها وغضبها لكنها وجدت صعوبة في ذلك فجسدها ما زال مليئاً برائحته والإحساس به: «فليكن! سأكون بأحسن حال يا سيد مورو. لاحظت في الغرفة الأخرى مدفأة كهربائية صغيرة لتدفئة الفراش وهي موضوعة على صندوق الأدراج، سأدفىء بها الفراش ثم...».

فقال وكأنه لم يسمعها: «لن نتكلم أكثر في هذا الموضوع، إذ عليك أن تعودي معي إلى بيتي».

مع أن دعوته هذه بدت عطوفاً، إلا أن صوته كان مليئاً بالغيظ. أما بالنسبة إلى ماريغولد، فإن ذلك التجاوب الغادر لجسدها ما إن يقترب من جسده، هو ما جعلها تقول بسرعة: «شكراً، ولكن ما كان هذا ليخطر في بالي».

فقال ببرودة: «هذا ليس اقتراحاً اجتماعياً مهذباً، يا آنسة جونز، لكنه ضروري. بالنسبة إليّ شخصياً، يسعدني جداً أن أتركك هنا لتتجمدي من البرد حتى الموت، لكنني أعلم أن جدتك ما كانت لتقبل بذلك».

فردّت بحدة: «أنا لن أتجمد حتى الموت».

- ليس لديك تدفئة ولا طعام...

- لدي علبتان من البازيلا ورغيف خبز في حقيبة ظهري.

بدا في عينيه الجامدتين تعبير يغني عن مجلدات. وعاد يكرر بجدية: «لا تدفئة ولا طعام. كما أن ليس بإمكانك السير على قدميك. ويبدو أن التواء كاحلك سيسبب لك مشكلة لعدة أيام. ومن دون وقود وطعام، بقاؤك هنا أمر غير منطقي».

لم تعد ماريغولد تحتمل المزيد من هذه المعاملة الفظة: «غير منطقي؟ لقد أخبرتك...».

- بأن لديك علبتي بازيلا ورغيف خبز. نعم أعلم هذا.

كان ذلك قمة التهكم، فتمنت لو أن بإمكانها أن تسدد لكمة إلى وجهه فتشعر عندئذٍ بالبهجة.

- دعيني أوضح لك أمراً يا آنسة جونز، ستأتين معي سواء شئت أم أبيت، وغداً سأرسل شخصاً ليرى ما يلزم للسيارة وكذلك لتدفئة الكوخ وتهوئته. صدقيني، رغبتي برفقتك تماثل تماماً رغبتك برفقتي. وعندما نتأكد من مدى إصابة كاحلك، سنرى متى يمكنك العودة إلى هنا.

بدا حقاً وكأنه يستعجل عودتها. حدقت ماريغولد إلى وجهه البارد الغاضب أمامها، وذكّرت نفسها بأن هذا الغضب سببه تصرفات إيما وأسرتها. مع ذلك فهو كريه، كريه. وهي تمقته. آه، كم تمقته!

- والآن، ماذا تفضّلين؟ هل ستأتين طوعاً أم مقيدة كديك العيد؟

أدركت من طريقة سؤاله أنه يرجو أن يكون رأيها هو الأخير.

حملقت فيه والغيظ يملأ عينيها: «أنت أكثر الرجال فظاظة من بين كل من عرفتهم في حياتي».

قالت هذا ثائرة. وبدا لها وكأنه يتسلّى برؤية ملامحها الملتهبة: «أكرر، يا آنسة جونز، هل ستأتين بهدوء، متظاهرة على الأقل بأنك سيدة مهذبة، أم...».

فقالت بلهجة مسمومة: «سآتي».

فقال ببطء وبلهجة ساخرة: «أهلاً وسهلاً بك».

بدا وكأنه استعاد روحه المرحة، وتنفّس بارتياح.

جاهدت ماريغولد لكي تقف على قدميها وهي تحدق إليه، وأزاحت يده جانباً بحدة عندما مدّها نحوها ليساعدها.

ـ يمكنني تدبّر أمري. شكراً. وإياك أن تجرؤ على معاملتي بخشونة مرة أخرى!

ـ أعاملك بخشونة؟ ظننت أنني أساعد «سيدة في محنة» كما يقال.

قال هذا ساخراً، ما جعل وجهها يحمرّ. ثم سألها: «كيف ستتمكنين من السير حتى سيارتي؟».

فقالت بحزم: «سأقفز على قدم واحدة».

وهذا ما فعلته.

* * *

٢ ـ تحت رحمة الجلاّد

ـ والآن، يا آنسة جونز، أم بإمكاني أن أدعوك إيما لأنك تكرمت بقبول دعوتي وضيافتي؟

كانا قد ابتعدا لتوّهما بالسيارة عن الكوخ، فلاحظت ماريغولد بيأس أن الثلج ينهمر بغزارة أكثر من قبل. أومأت جواباً على سؤاله، فرمقها بنظرة جانبية ساخرة طويلة: «ويجب أن تناديني فلين».

هل يجب عليها هذا حقاً؟ إنها لا تظن ذلك. وشعرت بشمانة لأنه لا يعرف في الحقيقة، من تكون.

ـ وهكذا، لماذا قررت يا إيما أن تمضي عيد الميلاد وحدك في كوخ جدتك؟ ما سمعته عنك من جدتك ثم من الفلاحين «الأجلاف» بعد زيارتك الأخيرة، جعلني أعتقد أن هذا ليس من عاداتك. ماذا حدث لصديقك المغرور؟

كان أوليفر مغروراً فعلاً، ولم تكن ماريغولد تطيقه. لكن سماعها فلين يشير إليه بغطرسة واحتقار، جعل أوليفر فجأة عزيزاً عليها. وهكذا أرغمت نفسها على أن تهز كتفيها بازدراء: «أسبابي تخصني وحدي بكل تأكيد».

أومأ ببشاشة، ولم تبدُ عليه المفاجأة لهذا الرد: «بكل تأكيد. على أي حال، لن يعترض أحد في هذه الأنحاء على عدم وجود صديقك معك. فهو لم يترك مجالاً لأي تفاهم حين شتم صاحب المقهى وراح يجادل بالنسبة إلى وجبة طعامك».

www.elromancia.com

تنهدت ماريغولد، آه، هذا رائع. من المؤكد أن إيما وأوليفر تركا أثراً في المنطقة، لكنه أثر سيء من دون شك. كان كاحلها ينبض بالألم بشكل لا يطاق. فكرت في أنها لا تحمل معها حتى قميص نوم لتلبسه، وبعد يومين تحل ليلة عيد الميلاد.. ليلة عيد الميلاد التي سيمضيها دين وتامارا متعانقين تحت سماء جزر الكاريبي الدافئة.

لم تنتبه إلى أنها تبدو صغيرة الحجم وبالغة الضعف ومدفونة في المعطف الواقي من المطر، وإلى أن شعرها الذي يصل طوله إلى كتفيها غدا مبللاً. ولهذا تملكتها الدهشة عندما سمعت صوتاً هادئاً يقول: «لا تقلقي! مدبرة منزلي ستعتني بك حالما نصل إلى «أوكلاندس» ويمكن لزوجها أن يأخذ كمية من الحطب والفحم إلى الكوخ الليلة ويهتم بتهوئته جيداً. كما أن لديه خبرة بالسيارات أيضاً».

نظرت ماريغولد إلى فلين بحذر. هذا التحوّل المفاجيء من ملاك الانتقام الذي ينفث النار، إلى إنسان متفهم كان مثيراً للشبهة. ولا بد أن الذهول بدا على وجهها، لأنه أطلق ضحكة صغيرة منخفضة: «أنا لا أعض... حسناً، ليس الفتيات الصغيرات على كل حال».

ـ شكراً، لكنني امرأة ناضجة في الخامسة والعشرين.

أجابته بذلك بسرعة، رغم أن صوتها لم يكن بالحدة التي رغبت في إظهارها. أثار هذا الرجل اضطرابها عندما بدا كريماً محباً للجدل، أما الآن، بعد أن تحول إلى الهدوء والمواساة فها هو يثير اضطرابها بشكل مضاعف. شعرت بأمان أكبر عندما كانت تقاتله أما الآن فلم تعد تشعر بالأمان مطلقاً، وقد غدا رد فعل جسمها نحوه أقوى.

أما هو فقطب جبينه: «في الخامسة والعشرين؟ أظن أن الجدة ماغي أرسلت لك هدية في عيد ميلادك الحادي والعشرين قبل أن تموت بفترة قصيرة».

وقررت ماريغولد أن تتخلص من هذا المأزق بالخداع، فقالت بجفاء: «أطمئنك إلى أنني أعرف عمري جيداً».

عندما رأت أنه على وشك أن يقول المزيد، أضافت بسرعة: «هل «أوكلاندس» هو بيتك؟».

لم يجب على الفور، ثم عاد فأومأ: «اشتريته من صديق قرر أن يهاجر إلى كندا منذ عامين. لا بد أن جدتك حدثتك عنه، إذ يبدو أنهما كانا صديقين حميمين. اسمه بيتر لندون».

أومأت ماريغولد بغموض، راجية أن يكون هذا كافياً.

ـ لقد افتقدته كثيراً حين سافر، إذ اعتاد أولاده عبور الوادي لزيارتها بشكل دائم. ويبدو أنها وجدت فيهم بديلاً عن أسرتها الحقيقية، كما أظن.

ها هي نبرة الإتهام تعود إلى صوته. لكن ماريغولد تجاهلتها بينما تابع هو يقول: «عندما كنت أزورها اعتادت أن تريني صور أسرة بيتر. لم ترني صوراً لك قط... ربما كان هذا يؤلمها كثيراً».

شعرت ماريغولد بأن عليها أن تقول شيئاً: «كيف يمكنك أن تقول هذا بينما اعترفت بأنك لم تعرفها منذ مدة طويلة؟»

قالت هذا محمّلة صوتها قدر ما تمكنت من التأنيب، وكأنها تتعاطف حقاً مع جدة إيما المسكينة.

رغم أن إيما كانت لطيفة المعشر كزميلة في العمل، إلا أن ماريغولد لم تستبعد أن تكون عديمة الاكتراث بشأن جدتها إذا شاءت ذلك.

ـ كان بيتر طويل القامة، وأظنه كان يعرف أباك أيضاً. لكنهما لم ينسجما معاً.

وساد صمت ثقيل. ومرة أخرى شعرت ماريغولد أن عليها أن تقول شيئاً: «لا أعرف شيئاً عن ذلك».

قالت هذا بصدق، ثم سكتت فجأة حين رأت أنهما يجتازان بوابة واسعة قائمة في جدار حجري يبلغ ارتفاعه ستة أقدام. لا بد أن هذا بيته.

راحت السيارة تسير في طريق محاط بأشجار السنديان الضخمة الرائعة التي أضفت عليها كسوتها الثلجية البيضاء مهابة وجمالاً. رأت ماريغولد البيت من بعيد، فبدا منزلاً فخماً بالغ الإتساع. ابتلعت ريقها بصعوبة وهي

تتذكر ما قالته إيما عن المنزل الآخر في الوادي. . . بيت كبير. . . وكان هذا فعلاً بيتاً كبيراً.

نظرت إلى فلين من تحت أهدابها ثم تفحّصت السيارة الفخمة الجديدة، والسترة الجلدية الرائعة الملقاة على المقعد الخلفي في سيارته، وملابسه الفاخرة. كل هذا أحدث تأثيراً مفاجئاً على حواسها. وانتقلت عيناها إلى يديه الكبيرتين السمراوين على مقود السيارة. هل تلك الساعة في معصمه من تصميم خاص؟ لا بد أنها كذلك، فهي رائعة. . . وخنقت آهة.

برز فجأة، من مكان ما، كلبان ألمانيان ضخمان طويلا الشعر. راحا ينبحان بجنون ما جعل ماريغولد تقفز من مكانها. لاحظ فلين ذلك فقال: «آسف، كان يجب أن أنذرك مسبقاً، إنهما جيك وماكس. وهما يظنّان أنهما كلبا حراسة».

نظرت من النافذة إلى الوجهين الضخمين والأسنان الكبيرة فيما الكلبان يحدقان إليها، فارتجفت: «يظنّان؟ لقد أقنعاني فعلاً».

التفت فلين إليها ضاحكاً وهو يوقف السيارة بينما الكلبان لا يزالان يقفزان حولها: «لا تخبري أحداً أنهما يمضيان وقتهما نائمين أمام الموقد في المطبخ، وأنهما يتجمدان خوفاً من قطط مدبرة منزلي».

قال هذا برقة فائقة، فابتسمت بضعف. أتراه يعلم أي تأثير تترك فيها رقة ملامحه الصلبة تلك؟ إن لرقته هذه تأثير المتفجرات. . .

وقالت بضعف: «حسناً. . . علاقتي بالحيوانات ليست جيدة».

عندئذ، تغيّرت ملامح وجهه: «علمت ذلك».

والآن، ما الذي قالته؟ حدّقت إليه وقد بدت عليها الحيرة: «عفواً. . .؟».

ـ كان الأمر واضحاً من خلال المحامين. تعرفين هذا طبعاً، أليس كذلك؟ تُباع إذا ما وجد شارٍ يدفع فيها أي ثمن وإلا يجب أن تقتل. وطبعاً، لا يرغب الكثيرون بشراء بضع دجاجات هزيلة قذرة وبقرة عتيقة، كذلك الأمر في ما يتعلق بالقطة والكلب.

آه، لا. . . إيما لم. . .

ـ لا تخبريني بأن هذا أمر آخر لم يخبرك أبوك عنه.

ـ أنا. . . لم أعلم. . .

التقت عيناه بعينيها فلم تستطع تحويلهما عنه.

ـ لا؟ لا أدري إذا كنت أصدقك.

أحست ماريغولد فجأة أنها لا تحب أسرة إيما على الإطلاق: «لم أعلم هذا».

كررت قولها هذا بضعف وبلهجة غير مقنعة حتى لنفسها، وهي لا تزال تفكر في حيوانات ماغي المسكينة.

تأملها لحظة فأوشكت أن تخبره بكل شيء. . . بأنها ليست إيما. . بأنها أخذت الكوخ عندما قُدم إليها من دون أن تعرف إلا القليل عن إيما وجدّتها وأسرتها. . . إلّا أنه هزّ كتفيه ببرودة وقال: «كل ذلك أصبح من الماضي الآن. فلندخل».

عندما رأته يستدير حول السيارة ليتقدم نحوها نسيت أمر حيوانات ماغي وانتابها الذعر من أن يحملها مرة أخرى. شعرت وكأنه سيغمى عليها. يبدو أن سيرها على قدم واحدة للوصول إلى السيارة قبل قليل زاد من الألم في كاحلها المصاب فوصل إلى حد لا يطاق. لكنها مع ذلك تفضل أن تعيد الكرة على أن يضمها إلى جسده القوي مرة أخرى.

لم تتجاوب قط مع رجل بهذا الشكل من قبل، ولا حتى مع دين. شعرت بتشوش أفكارها لعلمها أن خلف ذلك الذعر والتنبه تكمن مشاعر ممنوعة وغير مرغوب فيها.

بإمكانها أن تقفز على قدم واحدة لتصل إلى البيت. وهذا ما قررته وهو يتوجه نحوها ليفتح لها الباب. لم تكن هذه الطريقة المثالية لدخول المنزل خاصة أن مدبرة منزله وزوجها واقفان يتفرجان فضلاً عن الكلبين اللذين يسيل لعابهما، ولكن لم يكن من ذلك بد.

لكن فلين لم يمنحها الفرصة لإظهار مشاعرها وما ترغب فيه. فقد

انفتح باب السيارة وسرعان ما أصبحت بين ذراعيه ليسير بها إلى باب المنزل المفتوح.

وبدا الإهتمام على وجه مدبرة المنزل وهي تقول: «آه، يا سيد مورو، ماذا حدث؟».

ـ سأشرح لك الأمر في الداخل.

ويا له من داخل! غمرها الدفء وهي تجيل نظراتها في مظاهر الترف التي تحيط بها. بدءاً من الردهة ذات الأرضية الخشبية المكسوة بالسجاد الثمين والسلم الواسع الرائع الذي يصعد إلى ما لا نهاية، مروراً باللوحات الفنية المعروضة على الجدران.

على كل حال، لم يتسع لها الوقت سوى لإلقاء نظرة واحدة متأملة قبل أن يُدخلها فلين إلى غرفة استقبال حيث أجلسها على أريكة قريبة من المدفأة المتوهجة. كانت ذراعها تلتف حول رقبته. ورغم أنه كان يحملها بشكل حيادي، إلا أن كل عصب في جسدها أصبح حياً مفعماً بالحيوية بشكل مؤلم. وللحظة جنونية، لحظة سخيفة جنونية، تساءلت عما سيفعله لو احتضنته بذراعيها بقوة أكبر. أنزلها على الأريكة، ثم التفت إلى المرأة: «هذه الآنسة جونز، يا برتا، حفيدة ماغي. تعطلت سيارتها على بعد حوالى الميل من الكوخ وأصيب كاحلها. اهتمي بها من فضلك بينما أبحث عن ويلف وأرسله ليلقي نظرة على السيارة. بإمكانه أن يأخذ جون معه أيضاً. أريدهما أن يحضراها إلى هنا إذا أمكن. كما أن لدينا عدة مدافىء متنقلة يمكنهما أن يأخذاها إلى الكوخ ويبدآ في تدفئته. واطلبي من جون أن يأخذ إليه حملاً من الحطب وعدة أكياس من الفحم غداً صباحاً».

ـ أرجوك، هذا ليس ضرورياً.

كان عليها أن تخبرهما أنها ليست إيما. لم لم تخبر فلين من قبل؟ أرادت أن تتركه ينخدع لأنه تصرف معها على الطريق بذلك الشكل الكريه. وبعد ذلك لم تجد فرصة مناسبة تعترف له فيها بالحقيقة. لكن الأمر يغدو أكثر إحراجاً وفظاعة بين دقيقة وأخرى.

كان فلين قد سار نحو الباب عندما قالت له ماريغولد بسرعة: «يا سيد مورو... أرجوك... أريد أن أوضح...».

فالتفت إليها بوجه جامد وقال ببرودة: «فلنقم بما هو هام أولاً. أريد أن أرسل ويلف وجون أولاً إلى السيارة قبل أن يحلّ الظلام. كما يجب أن نفحص قدمك. وأذكرك بأن اسمي هو فلين كما سبق وأخبرتك».

ـ لكنك لا تدرك...

سكتت فجأة وهي تراه يخرج، فنظرت إلى مدبرة المنزل التي كانت تحدق إليها، ثم قالت مذهولة: «يجب أن أتحدث إليه».

ـ كل شيء في حينه، يا حبيبتي. تبدين وكأنك متأهبة للقتال، إذا سمحت لي بهذا القول. والآن فلنحاول أن نخلع حذاءك لنربح قدمك، وسأكون حذرة للغاية لئلا تتألمي. أرجو ألاّ يكون متورّماً.

الحمد لله. على الأقل ثمة شخص لا يراها فظيعة، كما فكرت ماريغولد شاكرة وهي تبادل المرأة ابتسامتها الودود. كان ذلك الشعور رائعاً.

كان عليهما أن تقصا فردة الحذاء الطويل عن رجلها، وعندما ظهر كاحلها بكل مجده صفّرت مدبرة المنزل بصوت خافت: «يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي! هذا فظيع، يا حبيبتي».

ـ ستكون على ما يرام.

لا شيء سيجعل ماريغولد تبقى في هذا البيت ثانية واحدة أكثر مما يلزم: «بعد أن نربطها وأرتاح ليلة ستصبح قدمي بخير».

هزت المرأة رأسها متشككة وهي تنظر إلى اللحم المنتفخ بلونه الأحمر المائل إلى الأزرق، ثم خرجت لتحضر وعائين يحتوي أحدهما على ماء ساخن والآخر على ماء بارد، كما قالت لماريغولد.

ظنت ماريغولد أن الورم سيختفي تلقائياً. اتكأت إلى الأريكة واضعة قدمها على وسادة جلدية، وأغمضت عينيها متجاهلة الألم البالغ وهي تفكر بيأس في ورطتها هذه. إنها ضيفة غير مرغوب فيها في بيت رجل يشمئز منها أو على الأقل يشمئز من الفتاة التي يظنها هي. لكنها لن تبقى مهما كانت

حالة كاحلها. ستحرص على الذهاب إلى الكوخ غداً ولو زحفاً. يبدو أنّ هذا العيد سيكون تعيساً للغاية.

عندما يستقر بها المقام في الكوخ، ستجلس أمام المدفأة وتمضي العيد بالقراءة بينما تعتني بكاحلها. فكرت في أن وضعها الحالي ليس في غاية السوء. فلديها طعام كثير في السيارة كما سيصبح لديها، كما يبدو، مزيد من الوقود، وهي ستدفع ثمنه طبعاً كما ستدفع أجراً للرجل الذي سيهتم بسيارتها. تحركت على الأريكة وهي تشعر بالضيق لإدراكها أنها لم تعترف حتى بكرم أخلاق فلين حين دعاها للمبيت عنده الليلة.

ـ عندما قالت إنه سيء، كانت تعني أنه سيء.

فتحت ماريغولد عينيها وهي تنتصب في جلستها. كان فلين قد دخل إلى الغرفة بخفة القط، ووقف يتأملها بعينين ضيقتين. ظنت للحظة أنه سيتعاطف معها أو على الأقل يهنئها على صبرها، لكن هذا الوهم سرعان ما تبدّد عندما تابع يقول بغضب: «ما الذي جعلك تسيرين على قدمك بعد أن أصيبت بهذا الشكل؟ ألم تدركي أنك تزيدين الأمر سوءاً مع كل خطوة؟ أيتها الغبية!».

منذ لحظة كانت تشعر بالضعف والحزن أما الآن فشعرت بأن النار تسري في عروقها وهي تجيب: «إسمع. أنا لم أكن أعلم أنك ستمرّ بي هناك، أليس كذلك؟ ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أبقى في السيارة لأتجمّد حتى الموت؟ أم أحاول السير باتجاه الكوخ حيث...؟»

ـ حيث لا طعام ولا تدفئة على الإطلاق. لماذا لم تحاولي الاتصال بأحد، على أيّ حال؟ كخدمة الطوارىء مثلاً. هل لديك تأمين ضدّ الطوارىء؟

فأجابت بحدة: «نعم».

ـ لكنك لم تفكري بطلب النجدة؟ بل وجدت من الأسهل أن تسيري في العاصفة الثلجية كما يفعل الرحالة في القطب الجنوبي.

عضت شفتها بقوة. سيعجبه ما ستقوله الآن: «نسيت هاتفي الخلوي في البيت».

لم يجبها. ولم يكن مضطراً لذلك لأن ملامحه دلت على الكثير. ثم أضافت: «كما أن حال كاحلي ليس سيئاً إلى هذا الحد».

ـ سيتضاعف حجمه عند الصباح ويغدو لونه شبيهاً بألوان قوس قزح.

قال هذا بهدوء فشعرت بالغيظ لتشخيصه حالة كاحلها: «وما أدراك؟ أنت لست طبياً».

ـ بل أنا طبيب في الواقع.

فوجئت ماريغولد بردّه وطرفت بعينيها، بينما التوت شفتاه للحيرة التي ظهرت على وجهها.

وإذ رأته يضحك منها ثار غضبها، فقالت بوقاحة: «آه، أحقاً؟ أظنك جراح مخ أو شيئاً كهذا؟».

ـ هذا صحيح.

اتسعت عيناها كفنجانين. آه، هذا غير ممكن. ليس جراح أعصاب... هذا غير ممكن!

راح يتأملها بثبات من دون أن تتغير تعابير وجهه فأدركت أنه لم يكن يمزح طبعاً. لا يمكن أن يكون طبيباً عادياً كما حدثت نفسها. إنه ليس طبيب صحة عامة، رقيقاً ودوداً يعالج الأمراض العادية، شخصاً كثير العمل قليل الأجر ولديه قائمة طويلة من المرضى الذين يطلبون اهتمامه.

أدركت أنها كانت غير عادلة في حكمها عليه لكنها لا تستطيع السيطرة على نفسها، مع هذا الرجل بالذات.

أرغمت نفسها على أن تقول راضية: «لست طبياً عادياً يعمل من التاسعة حتى الخامسة إذن؟»

فأجاب وهو ما زال يتأملها بإمعان: «ليس تماماً».

ـ هل تعمل في مستشفى قريب من هنا، أم...؟

ـ أعمل في لندن. ولدي شقة هناك.

حسناً، ولمَ لا؟ أومأت وهي تقول: «لا بد أن مساعدة الناس أمر مجزٍ للغاية...».

حالة كاحلها. ستحرص على الذهاب إلى الكوخ غداً ولو زحفاً. يبدو أنّ هذا العيد سيكون تعيساً للغاية.

عندما يستقر بها المقام في الكوخ، ستجلس أمام المدفأة وتمضي العيد بالقراءة بينما تعتني بكاحلها. فكرت في أن وضعها الحالي ليس في غاية السوء. فلديها طعام كثير في السيارة كما سيصبح لديها، كما يبدو، مزيد من الوقود، وهي ستدفع ثمنه طبعاً كما ستدفع أجراً للرجل الذي سيهتم بسيارتها. تحركت على الأريكة وهي تشعر بالضيق لإدراكها أنها لم تعترف حتى بكرم أخلاق فلين حين دعاها للمبيت عنده الليلة.

ـ عندما قالت إنه سيء، كانت تعني أنه سيء.

فتحت ماريغولد عينيها وهي تنتصب في جلستها. كان فلين قد دخل إلى الغرفة بخفة القط، ووقف يتأملها بعينين ضيقتين. ظنت للحظة أنه سيتعاطف معها أو على الأقل يهنئها على صبرها، لكن هذا الوهم سرعان ما تبدّد عندما تابع يقول بغضب: «ما الذي جعلك تسيرين على قدمك بعد أن أصيبت بهذا الشكل؟ ألم تدركي أنك تزيدين الأمر سوءاً مع كل خطوة؟ أيتها الغبية!».

منذ لحظة كانت تشعر بالضعف والحزن أما الآن فشعرت بأن النار تسري في عروقها وهي تجيب: «إسمع. أنا لم أكن أعلم أنك ستمرّ بي هناك، أليس كذلك؟ ماذا كان عليّ أن أفعل؟ أبقى في السيارة لأتجمّد حتى الموت؟ أم أحاول السير باتجاه الكوخ حيث...؟»

ـ حيث لا طعام ولا تدفئة على الإطلاق. لماذا لم تحاولي الاتصال بأحد، عل أيّ حال؟ كخدمة الطوارىء مثلاً. هل لديك تأمين ضدّ الطوارىء؟

فأجابت بحدة: «نعم».

ـ لكنك لم تفكري بطلب النجدة؟ بل وجدت من الأسهل أن تسيري في العاصفة الثلجية كما يفعل الرحالة في القطب الجنوبي.

عضت شفتها بقوة. سيعجبه ما ستقوله الآن: «نسيت هاتفي الخلوي في البيت».

لم يجبها. ولم يكن مضطراً لذلك لأن ملامحه دلت على الكثير. ثم أضافت: «كما أن حال كاحلي ليس سيئاً إلى هذا الحد».

ـ سيتضاعف حجمه عند الصباح ويغدو لونه شبيهاً بألوان قوس قزح.

قال هذا بهدوء فشعرت بالغيظ لتشخيصه حالة كاحلها: «وما أدراك؟ أنت لست طبيباً».

ـ بل أنا طبيب في الواقع.

فوجئت ماريغولد بردّه وطرفت بعينيها، بينما التوت شفتاه للحيرة التي ظهرت على وجهها.

وإذ رأته يضحك منها ثار غضبها، فقالت بوقاحة: «آه، أحقاً؟ أظنك جراح مخ أو شيئاً كهذا؟».

ـ هذا صحيح.

اتسعت عيناها كفنجانين. آه، هذا غير ممكن. ليس جراح أعصاب... هذا غير ممكن!

راح يتأملها يثبات من دون أن تتغير تعابير وجهه فأدركت أنه لم يكن يمزح طبعاً. لا يمكن أن يكون طبيباً عادياً كما حدثت نفسها. إنه ليس طبيب صحة عامة، رقيقاً ودوداً يعالج الأمراض العادية، شخصاً كثير العمل قليل الأجر ولديه قائمة طويلة من المرضى الذين يطلبون اهتمامه.

أدركت أنها كانت غير عادلة في حكمها عليه لكنها لا تستطيع السيطرة على نفسها، مع هذا الرجل بالذات.

أرغمت نفسها على أن تقول راضية: «لست طبيباً عادياً يعمل من التاسعة حتى الخامسة إذن؟»

فأجاب وهو ما زال يتأملها بإمعان: «ليس تماماً».

ـ هل تعمل في مستشفى قريب من هنا، أم...؟

ـ أعمل في لندن. ولدي شقة هناك.

حسناً، ولمَ لا؟ أومأت وهي تقول: «لا بد أن مساعدة الناس أمر مجزٍ للغاية...».

وسكتت وهي تشهق عندما ركع وأمسك قدمها بيديه الكبيرتين. . . كانت يداه طويلتي الأصابع نظيفتي الأظافر. . . إنهما يدا جراح. . . وبرفق، أخذ يدير قدمها بيده وهو يجس اللحم.

أرادت أن تنتزع قدمها من بين يديه، لكن في مثل هذا الوضع لم يكن لديها أيّ خيار، فحدقت إلى شعره الأسود الكث ثم سألته: «مورو. . . ليس اسماً إنكليزياً. . . إليس كذلك؟».

ـ إنه فرنسي.

ورفع عينيه عن قدمها فأخذ قلبها يخفق بشدة: «كان أبي فرنسياً إيطالياً وأمي أميركية ايرلندية، لكنهما استقرا في إنكلترا قبل أن أولد».

ـ يا له من مزيج!

قالت هذا بشيء من الارتياح بعد أن أعاد قدمها إلى الوسادة ثم وقف ولم يعد يلمسها.

دخلت برتا تحمل بين يديها وعائين مليئين بالماء، ومنشفة على ذراعها. نظر فلين إليها وهو يسير إلى الباب: «خمس دقائق من التناوب بين الحار والبارد، يا برتا، ثم أعود لأربطها».

وكان عند وعده. راحت برتا تتحدث أحياناً وهي تغسل الكاحل بينما ماريغولد مسترخية. في اللحظة التي بدا فيها ذلك الجسم الكبير عند العتبة شعرت بتوتر في عضلات معدتها، وشكرت برتا بصوت متكلف لجهودها.

حين ابتعدت برتا حاملة وعائي الماء، اقترب فلين من الأريكة ثم مدّ يده إليها بكأس ماء وحبتي دواء: «خذي هاتين».

فسألته مترددة: «وما هما؟».

ـ سمّ.

وعندما قطبت جبينها، قال بضيق: «وماذا تظنينهما بحق الله؟ إنهما دواء لتسكين الألم».

فقالت بحزم: «لا أحب تناول الدواء».

ـ وأنا لا أحب أن أصفه لأحد، ولكن هذا العالم ليس كاملاً. وهكذا فالدواء ضروري أحياناً، كما هو الحال الآن. خذيهما.

ـ أفضل ألا آخذهما، إذا لم يكن لديك مانع.

ـ بل لديّ مانع، لأن كاحلك سيؤلمك جداً الليلة ولن يسمح لك بالنوم على الإطلاق إذا لم تأخذيهما.

ـ ولكن. . .

ـ هيا، خذي هاتين الحبتين اللعينتين.

لقد صاح بها. صاح بها حقاً، كما فكرت ماريغولد وقد صعقتها الدهشة. هذا الرجل لا يتحلى بحسن الأخلاق الذي يتحلى به الطبيب نحو المريض عادة. وأخذت الحبتين.

بالإضافة إلى حبتي الدواء وكوب الماء، كان على الصينية مرهم ورباط. ركع أمامها مرة أخرى، فأخذت نفساً عميقاً توقعاً للمسته على قدمها. بدت أصابعه ماهرة واثقة، وأرسلت لمساته قشعريرة في كل أنحاء جسدها ما جعلها تشعر بالتوتر فغدت مشدودة كأسلاك البيانو. وغضبت من نفسها. لم تستطع أن تفهم كيف أن شخصاً متغطرساً مثله، كرهته منذ النظرة الأولى لديه مثل هذا التأثير عليها. كان ذلك مذلاً للغاية.

قال فلين بفتور وهو ينهض واقفاً بعد أن أكمل مهمته: «ستشعرين بالتحسن خلال دقيقة أو اثنتين».

ـ ماذا؟

مضت دقيقة فظيعة ظنّت خلالها أنه قرأ ما بذهنها. وقد خطر لها أنه لن يلمسها مجدداً، لكن تفكيرها المنطقي عاد إلى العمل فأدركت أن كلماته تشير إلى الحبوب المسكنة للألم وربط كاحلها فقالت بسرعة: «آه، نعم، شكراً».

ـ سأطلب من برتا أن تحضر لك شراباً ساخناً وطعاماً خفيفاً.

وقف فلين أمام الأريكة ينظر إليها بثبات، فلم تستطع أن تقرأ شيئاً في قسماته. ثم أضاف بلهجة عادية:

ـ وبعد ذلك أرى أن تستلقي وتنامي حتى موعد العشاء في الثامنة. لا بد أنك مرهقة.

حدّقت إليه ماريغولد فبدا لها أنه استعاد طبعه الجليدي مرة أخرى. وبالرغم من صياحه في وجهها قبل قليل، إلا أنها فضلت ذلك على المزاج الذي ظهر عليه الآن. فهو يبدو الآن رهيباً للغاية.

قالت مرة أخرى وكأنها لم تجد شيئاً آخر تقوله: «شكراً».

ـ بكل سرور.

ساورها الشك في ذلك لكنها لم تقل شيئاً، فهي تشعر بالوهن وبدا لها النوم مناسباً تماماً.

استدار فلين وسار إلى الباب ثم وقف عند العتبة وقال: «أصيب كاحلك برضّة قوية وستكونين محظوظة إذا استطعت أن تسيري بشكل طبيعي خلال أسبوعين».

ـ خلال أسبوعين؟

وحدقت إليه بذعر.

ـ كنت محظوظة جداً لعدم إصابتك بكسر.

قالت تحتج بحرارة: «إذا كنت بحال أفضل غداً فسأتمكن من أن أتنقّل على قدمي. أنا واثقة من ذلك. بدأت أشعر بالتحسن منذ الآن بعد الرباط».

بقي صامتاً للحظة رغم أن قولها أرسل ابتسامة ملتوية إلى فمه القوي، ثم قال ببطء: «لحسن الحظ، لدينا عكازان في مكان ما، وهما من مخلفات الصيف الماضي. كانت برتا سيئة الحظ فوقعت وأصيبت بخلع في الركبة».

تنفست بعمق ثم قالت بعذوبة مصطنعة: «وهل يمكنني استعارتهما لفترة؟».

ـ لا مشكلة في ذلك.

ـ شكراً.

أومأ برأسه وخرج مغلقاً الباب خلفه. وفي تلك اللحظة أدركت ماريغولد أنها فوّتت عليها أحسن فرصة لتصحح الأمور وتخبره بحقيقة شخصيتها.

***

www.elromancia.com

٣ ـ من أنت؟

أكلت ماريغولد الشطيرة المحمصة وشربت فنجان الكاكاو اللذين أحضرتهما لها برتا بعد خروج فلين بدقائق. استسلمت للنوم على الفور. لا شك أن حبتي الدواء اللتين أعطاهما لها فلين قد ساعدتاها على الاسترخاء.

استيقظت في ما بعد على همهمة أصوات خارج الغرفة. فتحت عينيها الذاهلتين، وللحظة لم تدرك أين هي. حدقت إلى اللهب المشتعل في المدفأة الحجرية الضخمة، إلا أن وخزة الألم في كاحلها ذكرتها بما حدث.

سحبت جسمها إلى الوراء لتجلس على الأريكة، وسوّت قدمها على الوسادة ما زاد من شعورها بوخزات الألم. بعدئذ سوّت كنزتها الصوفية وعدلت الحزام في بنطلونها الجينز. وما لبث أن انفتح الباب...

بدت الغرفة شبه مظلمة إذ لم يكن ينيرها سوى مصباح قائم في إحدى الزوايا، منافساً وهج نيران المدفأة الضخمة. وعندما أضيء المصباح الرئيسي طرفت ماريغولد بجفنيها كأنها طائر صغير مجفل، وهي تنظر إلى فلين والرجل الآخر: «سيسرك أن تعلمي أن ميرتيل بخير، وقد أصبحت الآن في الكاراج».

قال فلين هذا بهدوء فيما كان الرجلان يسيران نحو الأريكة: «هذا ويلف، بالمناسبة. وهذه، يا ويلف، الآنسة جونز حفيدة ماغي».

ـ لكنها ليست الآنسة جونز.

كان زوج برتا رجلاً صغير الجسم ورديّ البشرة ذا عينين صغيرتين، راحتا تحدقان إلى ماريغولد بتشوّش واضح.

ـ ماذا؟

ـ إنها ليست المرأة التي ذهبت إلى المقهى ذلك اليوم برفقة الفتى المغرور، صديقها الذي أقام الدنيا وأقعدها من أجل المبلغ الذي طلبه آرثر ثمناً للوجبة التي تناولاها.

قال ويلف هذا بحيرة بالغة، غير مدرك أنه يسبب لماريغولد أتعس لحظة عرفتها في حياتها.

ـ يمكنني أن أوضح الأمر و...

قاطع فلين صوتها المحموم بصوته البارد كالثلج: «ربما تحبين أن تعرفينا بنفسك إذن؟».

أخذت ماريغولد نفساً عميقاً وهي تفكر أنها لولا حبها لوالديها لكرهتهما لأنهما أطلقا عليها اسماً يسبب لها الإحراج دوماً. فقالت بصوت مرتجف: «اسمي ماريغولد... ماريغولد فلاور».

ـ أنت تمزحين.

تمنت لو أنها تمزح فعلاً... تمنت لو تستطيع أن تدعي أن اسمها تامارا جيمس مثلاً. قالت بتعاسة بينما راح فلين ينظر إليها بجمود تام: «لا. إسمي هو ماريغولد فلاور حقاً. أمي... حسناً، إنها غريبة الأطوار قليلاً. وعندما تزوجت من أبي وعائلته فلاور، وهو يعني زهرة، ثم أنجبت طفلة، أطلقت على اسم ماريغولد أي القطيفة وهكذا أصبح اسمي ماريغولد فلاور أي زهرة القطيفة. وقد ارتاح أبي لأنني لست ولداً لأنها كانت ستسميني «غروموبل»، وهي زهرة جميلة زرقاء كانت أمي حينذاك تزرعها في حديقتها...».

تلاشى صوت ماريغولد، فقد أنبأتها نظرات ويلف الجامدة أنه يظنها تهذي. أما عينا فلين فبدتا جادتين للغاية، وكانتا تخترقان رأسها كالليزر.

ـ أنا مسرورة بالتعرف إليك، وشكراً لعنايتك بسيارتي.

ومدّت يدها إلى ويلف، فانحنى يصافحها ثم تراجع إلى الخلف وكأنه خاف أن تعضه.

قال فلين عابساً من دون أن يحوّل نظراته عن وجه ماريغولد المتوهج:

«هل لك أن تتركنا وحدنا يا ويلف، وأخبر برتا بأنني لا أريد أي مقاطعة».

لم يكن ويلف بحاجة إلى كلمة أخرى لينطلق من الغرفة كالرصاصة، بينما شعرت ماريغولد بأنها تحسده من كل قلبها. نظرت إلى الباب وهو ينغلق ثم رفعت عينيها إلى فلين. كان لا يزال واقفاً بجمود تام ونظراته مركزة عليها ما جعلها تشعر وكأنها حشرة زحفت لتوّها من تحت حجر. فتمتمت بسرعة قبل أن يقول شيئاً: «حاولت أن أخبرك بذلك مرات عدة».

ـ تباً لمحاولاتك!.

ـ لكنني فعلت ذلك حقاً!

وحملقت فيه. قد لا يكون الهجوم أحسن وسائل الدفاع دوماً ولكن هذا كل ما لديها الآن: «لكنك كنت تتفجر غضباً على الطريق فلم تتح لي فرصة لأفتح فمي للرد».

ـ هل تعنين أن الذنب ذنبي؟ أنت أخبرتني كومة من الأكاذيب، وتركتني أعتقد أنك شخص آخر لتتملقيني وتشقي طريقك إلى بيتي بادعاء كاذب...

ـ أنا لم أتملق لأشق طريقي إلى بيتك. فأنا لم أشأ القدوم إلى بيتك إطلاقاً إذا كنت تتذكر، لكنك لم تقبل رفضي هذا. على أيّ حال، سأدفع لك أجرة هذه الليلة وثمن الحطب والفحم. ويمكنني أن أذهب إلى الكوخ الآن في الحال.

قالت هذا بغضب بالغ، وحاولت أن تنهض واقفة لكنها عادت فسقطت على الأريكة بصرخة صغيرة مختنقة وقد التوى وجهها ألماً.

ـ إبقي هادئة بحق الله!

صرخ بها مرة أخرى. لكن يبدو أنه سرعان ما ندم على ذلك إذ رأته يغمض عينيه لحظة قبل أن يأخذ نفساً عميقاً ثم يزفر بخشونة ليقول بهدوء: «إبقي هادئة».

وضاقت عيناه ببرودة وتقلّص وجهه وكأنه يحاول السيطرة على أعصابه.

شعرت ماريغولد بأنه ليس من الرجال الذين يسمحون بأن تثور طباعهم في العادة، وأن ما جرى بينهما نقطة سوداء أخرى ضدّها. وعادت تقول وهي ترتجف... فيما كانت تحاول جاهدة ألاّ تنهار أمام... أمام هذا الوحش: «حاولت أن أشرح لك الأمر، لكنك رفضت أن تصغي».

استمر بالنظر إليها متأملاً لحظة بدت لها دهراً، قبل أن يتركها ليسكب لنفسه كوباً من العصير ثم يقول: «أتريدين عصير عنب، ليمون، تونيك...».

ـ ليمون من فضلك، شكراً.

وتمنت ألا يبدو الارتجاف في صوتها بمقدار ما هو في داخلها. وبينما كان فلين يسكب العصير، أخذت تنظر حولها مرة أخرى. بدا كل شيء رائعاً للغاية. فكل ما في الغرفة ينطق بالثراء والقوة والنفوذ. السجاد ذو اللون التبني، الذي تغوص فيه القدم حتى الكاحل، الأرائك الرائعة الجمال، الستائر الطويلة ذات اللون الغامق، خزانة الكتب الخشبية الداكنة والمناضد الصغيرة... كل شيء بدا جميلاً للغاية.

ـ تفضلي.

وعندما ناولها الشراب لم تستطع أن تقرأ شيئاً على ملامحه الجامدة. جلس على كرسي على بعد أقدام منها، ثم وضع ساقاً فوق الأخرى واستند إلى الخلف: «أفهم من هذا أنك أخذت إذناً لاستعمال الكوخ؟».

فأجابت ساخطة وقد أفزعتها فكرة أن يظن بها السوء: «طبعاً... إيما زميلتي في العمل».

أومأ ببطء وهو يستمر في النظر إليها منتظراً منها، كما يبدو، أن تخبره بالمزيد عن نفسها.

حدقت إليه ماريغولد، وتمنت لو أنه لا يبدو بهذه الضخامة، فياضاً بالرجولة، أو واثقاً من نفسه إلى هذا الحد المزعج. لكنها مدينة له بإيضاح الأمر، فقد أنقذها من مصير بائس، واستضافها في منزله. تنفست بعمق ثم قالت بثبات: «أنا زميلة إيما في العمل، كما قلت لك، وهي...».

ـ ماذا تعمل؟

ـ ماذا تعني؟

ـ قلت إنك تعملين معها. ما هو العمل؟

ـ أنا مصممة ديكور.

وترددت قليلاً ثم أضافت: «إيما هي سكرتيرة الشركة. إنها شركة صغيرة ليس فيها سوى ثمانية موظفين، بمن فيهم الشريكان باتريشيا وجيف».

ـ هل تستمتعين بعملك هذا؟

ـ نعم، نعم.

عندما كانت ماريغولد نائمة، أبدل كنزته الصوفية بقميص حريري عادي كحلي اللون. وكان زره الأعلى مفتوحاً. وبالرغم منها، وقع نظر ماريغولد على شعر صدره الأسود المتجعد. راحت تتأمل جلسته المليئة بالرجولة الفياضة فبدا وكأن هالة من المستحيل تجاهلها تحيط به.

ابتلعت ريقها مرتين قبل أن تتابع: «عرضت عليّ إيما أن أمضي عطلة العيد في الكوخ فقبلت عرضها هذا... وقد تقرر الأمر بسرعة، كما أظن».

ـ لماذا؟

فحدقت إليه: «ماذا؟».

ـ لماذا تمضي فتاة جميلة مثلك العيد وحدها؟ لا تقولي لي إنه لم يكن لديك خيار آخر.

قال هذا بجمود، وبدا كلامه مجاملة من نوع خاص، رغم برودة وجهه وصوته. لم تعرف كيف تجيبه. لكنها ما لبثت أن قالت بحذر: «لأسباب شخصية».

كانت ممتنة له حقاً وبصدق لما قام به لأجلها. لكن لم تكن مستعدة لأن تخبر هذا الرجل المتغطرس تاريخ حياتها.

ـ آه...

أزعجها رده هذا، فقالت تتحداه على الفور: «آه؟ وماذا تعني هذه «الآه»؟».

تمطّى بكسل، قبل أن يقول: «كلمة «آه» تعني أنك هاربة من رجل».

كانت ماريغولد تواجه مشكلة في منع عينيها من مراقبة خطوط جسده... ولكن هذه السخرية، أو بعبارة أدق، تلك الجرأة من قبله كانت أشبه بماء بارد سُكب على أعصابها المتوترة. كيف يجرؤ على قول كهذا؟ وقالت غاضبة: «أنا لست كذلك».

ـ لا؟

ـ لا.

ـ لا بد من وجود رجل وراء رغبتك هذه بالعزلة.

بدا قوله من الغطرسة بحيث رغبت في ضربه، خاصة وأن كلامه صحيح. وشعرت بوجهها يتوهج بحرارة تضاهي حرارة النار المتأججة في المدفأة، فاستقام ظهرها بعنف وحملقت فيه وراح ذهنها يبحث بذعر عن جواب يسكته.

وقف فلين من دون أيّ اهتمام بغضبها وقال: «وجهك معبّر للغاية. كان عليّ أن أعرف حينذاك، على الطريق، أنك لست حفيدة ماغي».

لم تشأ أن تتنازل فتسأله عن السبب لكنها لم تستطع منع نفسها: «وكيف يفترض بك أن تعرف؟».

ـ أخبرني بيتر أن أقارب ماغي باردو المشاعر بينما أنت نار متقدة ومحمومة المشاعر.

بدا وكأن الكلمتين الأخيرتين ظلتا معلقتين في الجوّ. لكن فلين لم يكن واعياً لذلك.

أمن العدل أن يتمتع جراح محترم بكل هذه الجاذبية؟ أخذت تتساءل بغضب. كانت تظن أن الجراحين أشخاص في منتصف العمر وهم متزوجون ولديهم أولاد وربما أحفاد. كما كانت تتخيلهم على شيء من البدانة وجاذبيتهم لا تتعدى جاذبية لوح من الخشب. أما فلين فإمكانها أن تتصور

www.elromancia.com

ما يثير مروره في أنحاء المستشفى من إعجاب، خاصة مع هذا الجوّ البارد النائي الساخر نوعاً ما، الذي يحيط نفسه به. هذا الجوّ الذي يوحي للناظر إليه بأنه عديم التأثر بكل ما حوله وأنّ لا شيء يمكن أن يدهشه.

هذا التفكير، رغم سخافته، جعلها تشعر بالتسلية. لكن بعد تعليقه ذاك عن وجهها المعبّر، فكرت بأن عليها أن تكون حذرة. وسمعته يقول في اللحظة التالية: «حسناً. ما الذي يجعلك تشعرين بالتسلية الآن؟».

سألته مراوغة وهي تجاهد لمحو كل علائم الرضى عن وجهها: «التسلية؟ لا أدري ماذا تعني؟».

فهز كتفيه: «كما تشائين. والآن، من هو ذلك الرجل؟ وهل ما زلت تحتفظين له بمكان في حياتك؟».

ردّت بحدة وقد تلاشى كل أثر للغرور من نفسها بسرعة: «لم أقل إن هناك رجل».

ـ آه، لكنك لم تنفي أن هناك رجلاً وهذا أقرب ما يكون إلى الواقع.

إذا قال «آه» مرة أخرى فستقذفه بالكوب على رأسه المتغطرس، تعهدت لنفسها بذلك قبل أن تفكر... آه، يا له من لجوج كثير الأسئلة... لكنها لن تراه مرة أخرى بعد أن تترك بيته، فلماذا لا تسايره؟ قالت فجأة: «كان الرجل خطيبي، وقد خططنا كي يصادف شهر عسلنا في مثل هذه الأيام، لكنه سافر مع صديقة جديدة له. هل أرضاك أن تعرف هذا؟».

ها هي تدهشه مرة أخرى ولسبب ما لم يشعرها هذا بالرضى. أما هو فقد اعتدل في جلسته فيما هي تتحدث. ونظر إلى وجهها المتوتر، ثم قال بلطف أذهلها، وقد بدا الإخلاص العميق في صوته الدافىء: «أنا آسف، لا شك أن ذلك الرجل مغفل. ولكنك طبعاً تعرفين ذلك».

لقد تلقت الكثير من كلمات العطف والتعزية منذ ألقت بخاتم الخطبة في وجه دين وتركته، لكنها لم تكن ككلماته هذه.

استرخت أعصابها قليلاً وقالت بصوت ثابت: «يبدو أنها لم تكن المرة الأولى بحسب قول بعض الأصدقاء المشتركين. لقد بقينا معاً ثلاث سنوات

ولم أشكّ لحظة به. ماذا يجعلني هذا؟».

وابتسمت من دون بهجة. فقال بجفاء: «يجعلك محظوظة، أعني لأنك تخلّصت منه. فمعه كنت ستنتظرين طوال حياتك آملة أن ينضج وقد تموتين قبل أن يحصل ذلك. دعي امرأة أخرى تستلم وظيفة جليسة الأطفال معه بينما أنت تعيشين حياتك كما ينبغي».

لم تسمع من قبل مثل هذا القول المختصر الوافي، لكنها أدركت أنه على حق تماماً. حتى عندما كانت على علاقة مع دين، كان يعتمد عليها بشكل كبير، فهي مصدر القوة لهما معاً. إذ لم تكن قط تلك الفتاة الضعيفة التي تعتمد على الرجل وتتوقع منه أن يقرر كل شيء في حياتها. ومع دين، كانت تضطر دوماً إلى اتخاذ القرارات عنهما معاً لأنه وبكل بساطة لا يريد أن يتحمل أي مسؤولية. لم تكن علاقتهما متكافئة على الإطلاق. والمشكلة الرئيسية كانت... كما قال هذا الرجل الغريب لتوّه، إن دين لم يكبر بعد. وكأنه غير مستعد بعد لعلاقة دائمة، وربما لن يكون كذلك أبداً. فهكذا هم بعض الرجال.

رفعت رأسها ونظرت إلى فلين، بنظرة عميقة كعمق صوته. فقالت بابتسامة صغيرة: «اسمها تامارا، جليسة الأطفال تلك. طولها يفوق المئة وخمسة وسبعين سنتيمتراً، شقراء، زرقاء العينين، ولديها ساقان تصلان إلى عنقها طولاً... كما سمعت».

فسألها بهدوء: «الأصدقاء المشتركون مرة أخرى؟».

فأومأت إيجاباً.

ـ يبدو لي أن اتخاذك بعض الأصدقاء الجدد أمر مفيد أيضاً.

لقد فكرت في ذلك أيضاً، لذا تعززت رغبتها في التغيير. ففي لندن كانت تشعر أنها لا تزال على اتصال وثيق بدين، إذ لديهما العديد من الأصدقاء المشتركين، وهم يرتادون المطاعم والمقاهي نفسها التي ترتادها. صحيح أنها لم تصادفه في الطريق بعد، لكن هذا الأمر لا يعدو كونه مسألة وقت. كل هذه الأمور جعلتها تراجع مشاعرها، فاكتشفت أموراً عديدة.

أولاً، استطاعت أن تتمالك نفسها تماماً في عالم خالٍ من دين. ثانياً، لم يبق لها سوى القليل من الأصدقاء الحقيقيين. ثالثاً، لولا قرار زواجها من دين لبسطت جناحيها واتخذت لها عملاً حراً منذ دهور. رابعاً، إنها بحاجة إلى العمل بشكل مستقل حالياً، سواء نجحت أو فشلت في أعين الآخرين، فالعمل سيكفيها. لقد حان الوقت لكي تبدأ بالتقدم.

لم تأخذ منها هذه الأفكار سوى لحظات قليلة، لكن عندما وقعت عيناها على فلين مرة أخرى رأت أنه ينظر إليها بعينين ضيقتين. سألها بنعومة أدهشتها: «أظنك على وشك أن تطلبي مني أن أهتم بشؤوني الخاصة».

ـ لا، أبداً.

وترددت لحظة ثم أخبرته بالضبط ما كانت تفكر فيه، بما في ذلك التغيير في حياتها. واتخذت الأمسية بعد ذلك شكلاً من الغموض اللاواقعي، وسواء كان ذلك عائداً إلى الحبوب المسكنة للألم التي جعلتها تشعر بالاسترخاء أم لأنها وجدت نفسها في هذا البيت الشبيه بالقصر مع هذا الرجل غير العادي، فهي لم تعد واثقة. ومهما يكن، فقد تحدثت بصراحة تامة وكان هو مستمعاً جيداً. ربما يعود جزء من ذلك إلى طبيعة عمله، كما افترضت.

كان فلين قد شبك ذراعيه على صدره، وجلس مرتاحاً في كرسيه وهو يتأمل وجهها الجاد. وعندما انتهت أومأ برأسه ببطء، ثم قال برقة: «افعلي ذلك».

وما هي إلا لحظة حتى فتحت مدبرة المنزل الباب حاملة عكازين وهي تقول بشاشة: «ها قد أحضرتهما، أظنهما سيفيان بالغرض. كما أن العشاء أصبح جاهزاً إذا شئتما أن تأتيا إلى غرفة الطعام».

كافحت ماريغولد قليلاً وهي تسير إلى غرفة تقع في نهاية الردهة. وقد بدت رائعة كغرفة الاستقبال تماماً، بأثاثها الذي تمتزج فيه الأصالة بالحداثة.

تتوسط الغرفة مائدة كبيرة تتسع لعشرة ضيوف بسهولة. وقد جهز مكانان قرب نار متأججة في مدفأة رائعة من الرخام البني اللون. نظرت

ماريغولد إلى المكانين بذعر وكأنما خطر لها فجأة أنها ستأكل مع فلين وحدهما: «هذا ليس ضرورياً حقاً».

ـ أنا دوماً أتناول طعامي هنا عندما أكون في البيت. وكل ما فعلته برتا أنها جهزت مكاناً آخر.

هل هذا يعني أنه يأكل وحده؟ لم تشأ أن تسأل عن ذلك بصراحة، لكن هذا ما فهمته من كلامه. ووجدت ذلك مقلقاً للغاية. فلين يتناول طعامه وحيداً في هذا المنزل الواسع بكل ما يحويه من ترف؟ لكنها لم تفترض من قبل ولو للحظة، أنه متزوج، كما أدركت فجأة. لماذا؟ وقطبت جبينها فيما كان فلين يسحب أحد الكرسيين لتجلس عليه.

أخبرها عقلها لتوّه لماذا شعرت بأن فلين عازب. إنه يحيط نفسه بجوّ من العزلة الفطري... ويتمتع باستقلال هادىء ينبىء عن شخصية مستبدة غير مرتبطة. حدثت نفسها وهي تنظر إلى الوجه الأسمر الوسيم بأن لديه بالتأكيد علاقات مع النساء، فذلك يبدو طبيعياً لمثل هذا الرجل المليء بالحيوية. إلا أنه من النوع الذي يحتفظ بالأسرار لنفسه، ولا يمنح المرأة إلا ما يكفي ليبقيها راضية.

انتبهت إلى أفكارها الشاردة فتملكها الخجل وأنّبت نفسها لسخافتها. ما أدراها بأحوال هذا الرجل؟ فهي لم تره قط من قبل، كما أنها ليست من النساء اللواتي يتركن تأثيراً كبيراً على الرجال! كان لديها صديق قبل دين ولكن علاقتهما لم تصل إلى أكثر من بضعة مواعيد وعناق كتحية مساء. ومع دين أصرت على أن تكون علاقتهما عفيفة وأن يحتفظا برغباتهما حتى ليلة الزفاف. وقد سرّها هذا كثيراً بعد انفصام الخطبة، حتى أن جلدها يقشعر الآن كلما تذكرت أنه كان يشبع رغباته مع نساء أخريات أثناء خطبتهما.

بدا فلين أثناء العشاء شخصاً ظريفاً مسلياً، ومضيفاً خدوماً يتمتع بروح النكتة. وإن كانت نكاته ماكرة في بعض الأحيان، وهذا ما لم تلمسه منه في بداية تعارفهما.

بدأ العشاء بحساء دسم خبز بيتي طازج محمص، ولذيذ للغاية. تبع

ذلك لحم خروف محشو، ثم قدم قالب حلوى بالشوكولا. أين البازيلاء والخبز المحمص من طعام برتا الشهي هذا؟ هكذا فكرت ماريغولد حالمة وهي تلعق آخر ملعقة من حلوى الشوكولا.

أثناء شرب القهوة، شعرت بألم كاحلها من جديد. ولم تعترض عندما أصرّ عليها فلين لتأخذ حبة دواء أخرى... وكانت هذه المرة حبّة منوّمة كما أخبرها. وسرعان ما شعرت بتعب لم تشعر به قط في حياتها. يبدو أن أحداث هذا النهار المرهق، بالإضافة إلى تراكم المشاغل عليها، وغليان مشاعرها في الأشهر القليلة الماضية ساهمت في شعورها بالتعب بشكل مفاجىء.

لم تعرف ما إذا كانت خبرة فلين المهنية أم ضجره من صحبتها ما دفعه ليقول بهدوء ما إن أنهت قهوتها: «عليك أن تذهبي إلى النوم مباشرة، وتنامي تسع ساعات على الأقل، أيتها السيدة الشابة. ستأخذك برتا إلى غرفتك التي تقع في الطابق السفلي، وبهذا لا يكون عليك أن تصعدي السلالم».

وما إن نهض حتى ظهرت برتا فجأة وكأنما بسحر ساحر. ساعد فلين ماريغولد على الوقوف ووضع العكازين تحت إبطيها. فشعرت بهزة من البهجة للمسته ما جعلها بالغة التوتر والغيظ من نفسها. ماذا جرى لها وهي المرأة الناضجة؟ لكنها ما لبثت أن رسمت ابتسامة على وجهها وشكرته على ضيافته وعلى الوجبة اللذيذة بأدب فائق.

فقال لاوياً شفتيه بوجه جامد: «مرحباً بك».

وحدّقت إليه لحظة وقد أدركت أنها لم تعتذر منه في الواقع، عن تضليلها له بالنسبة لحقيقة شخصيتها. قالت له بسرعة قبل أن تفقد أعصابها، فبرتا تنتظرها لترافقها إلى غرفتها: «أنا... أنا آسفة لما حدث سابقاً. كان عليّ أن أشرح الوضع بشكل صحيح فلا أتركك تظنني إيما».

قالت هذا وقد احمر وجهها فابتسم تلك الابتسامة المدّمرة التي رأتها من قبل. انحبست أنفاسها قبل أن يقول بكسل: «كان عليّ أن أكون أكثر حكمة...».

ـ أكثر حكمة؟

ـ كان عليّ أن أدرك أن أوصاف إيما لا تنطبق عليك البتة.

لم تستطع أن تفهم، وظهر ذلك على وجهها، فأضاف: «إيما التي سمعت عنها فتاة وقحة، مندفعة وعصرية، ليس فيها من الروح أكثر مما في دمية، بينما الفتاة التي قابلتها في الطريق لم تكن مواصفاتها تتفق مع هذا الوصف على الإطلاق».

حدقت ماريغولد إليه وقد فوجئت تماماً بهذا المديح غير المتوقع. حاولت أن تقول شيئاً فلم تستطع سوى أن ترد ذاهلة: «شكراً».

ـ تصبحين على خير يا ماريغولد.

كانت عيناه غير مقرؤتين ولم يكن صوته دافئاً بشكل خاص، لكنها انتبهت إلى إحساس ضئيل يسري في أعصابها بطريقة مثيرة.

ـ تصبح على خير.

وأخذت تحجل إلى الباب الذي فتحته برتا لها. وجدت أن استعمال العكازين أصعب بكثير مما تصورت. وقفت عند العتبة والتفتت إلى فلين فإذا به يقف عند المدفأة ينظر إليها. كان النور الخافت الآتي من مصباح الجدار ينعكس على جسمه الكبير القوي كذلك وهج نيران المدفأة، فبدا داكن السمرة جذاباً إلى حد لا يطاق. إبتلعت ريقها بصعوبة من دون أن تفهم سر تسارع نبضها وهي تقول: «أنا واثقة من أنني سأكون غداً على ما يرام، لذا سأذهب صباح الغد. إذا كنت لا تمانع أود أن يوصلني ويلف إلى هناك. لا بد أن لديك خططاً لعيد لميلاد وأنا لا أريد أن أكون متطفلة».

فهز كتفيه: «سيأتي بعض الضيوف ليلة العيد، ولكن لا مشكلة في أن يكون هناك شخص إضافي. إننا نحضر دوماً الشجرة ونزينها بعد الظهر كما نزين المنزل. قد ترغبين بمشاركتنا في ذلك إذا ما بقيت حتى ذلك الحين».

لم يبدُ عليه الاهتمام سواء بوجودها أو عدمه، فعادت تقول بصوت أكثر حزماً: «أنا واثقة من أنني سأكون بخير إذا ما ذهبت غداً. ولكن، شكراً على كل حال».

ثم خرجت خلف برتا إلى الردهة.

ساورها شعور غريب لم تتمكن من تفسيره وهي تتبع برتا إلى الطرف الآخر من البيت. سترحل غداً مهما كانت حالة كاحلها، كما حدثت نفسها بغضب. فهي تريد أن تذهب إلى الكوخ وتبقى وحدها لكي تقرأ... ترتاح... لكي تنام وتشرب وتأكل ساعة تريد.

ـ هذه هي غرفتك، يا حبيبتي، إنها شقة أكثر منها غرفة.

قالت برتا ذلك ببشاشة وهي تفتح الباب وتتنحّى جانباً لتمرّ ماريغولد: «بنى المالك الأول لهذا البيت هذه الشقة لأمه التي عاشت معهم إلى أن ماتت، لكنها مفيدة لأي ضيف لا يحب صعود السلالم. لقد أشعلت فيها المدفأة و... آه... أنت؟».

صرخت برتا فجأة، فقفزت ماريغولد وأوشكت أن تفقد توازنها مع العكازين تحت إبطيها. ورفعت عينيها لترى برتا ترفع بسرعة قطة كانت نائمة أمام نار المدفأة المشتعلة في غرفة الجلوس.

راحت برتا تزجر القطة وهي تلقي بها إلى الممر خارج الغرفة.

ـ لا أريد أن تتسلل القطط إلى هنا.

قالت مدبرة المنزل هذا، ثم عادت إلى الغرفة ووضعت قطعة حطب في المدفأة، بينما جلست ماريغولد على كرسي مريح.

ـ ذلك القط محتال للغاية، فهو يتسلل باستمرار إلى غرف النوم ليجد سريراً ينام عليه.

بدت لهجة برتا مستاءة للغاية، فسألتها ماريغولد بحيرة: «ولكن لمن هذا القط؟».

ـ آه، كان لماغي، جدة إيما. هل تعرفينها؟ لقد سمع السيد مورو أنهم يريدون قتل حيواناتها فأحضرها كلها إلى هنا.

فسألتها ماريغولد مذهولة وهي تتذكر شيئاً قاله فلين مرة عن بضع دجاجات وبقرة عجوز: «أحضرها كلها؟».

فأومأت برتا: «كلها. لم يكن ثمة مشكلة بالنسبة إلى فلوسي، الكلبة

العجوز. لقد اعتادت على ويلف وهي تتبعه أينما ذهب. أما البقرة والدجاجات فتسرح في المرعى وتلجأ إلى المخزن عندما يتساقط الثلج. ولكن ذلك القط!».

هزت المرأة رأسها فاهتز اللحم المكتنز تحت ذقنها: «راسكال يتجول بحرية تامة وهو شرير حقاً».

استمرت برتا تروح وتجيء أثناء فتحها الأبواب، فرأت ماريغولد غرفتين جميلتين مع غرفة ضئيلة الحجم للملابس ملحقة بهما. كما رأت مطبخاً صغيراً للغاية. كان هذا بيتاً صغيراً رائع الجمال بحجم شقة ماريغولد في لندن.

بعد أن تركتها برتا، وقفت لحظة تنظر حولها. هذا البيت الضخم وتلك الشقة في لندن!... يا لحياة الأغنياء! لا شك أن هناك جانباً رقيقاً في شخصية فلين، يجعله يحتفظ بحيوانات جدة إيما.

دخلت إلى غرفة النوم، فإذا بها أنيقة مزخرفة باللونين البنفسجي والبرتقالي.

هل لديه صديقة؟ أتراه تزوج من قبل؟ وأدركت أنها لا تعرف عنه شيئاً، فقد تكلما كثيراً عنها أثناء ذلك العشاء الدسم اللذيذ ولم يتكلما أبداً عنه. فلم تعرف كم يبلغ من العمر حتى نظراً لمهنته كجراح أعصاب. لا بد أنه تجاوز الثلاثين من عمره، إلا أن وجهه وعضلاته المشدودة تجعل المرء يعطيه أي عمر بين أواخر العشرينات وأوائل الأربعينات.

وقطبت جبينها فجأة. ما الذي تفعله؟ لماذا تفكر بهذا الشكل؟ حياة فلين الغرامية ليست أبداً من شأنها. فبعد أن تغادر هذا البيت غداً لن تراه أبداً مرة أخرى.

ذكّرت نفسها بذلك عدة مرات أثناء استعدادها للنوم مع أن ذلك لم يمنع ذهنها من الشرود للحظات أخرى. ولكن عندما اندست بين الأغطية، توقف كل تفكير بفلين، واستغرقت في النوم. وكان نوماً عميقاً لم يكدره شيء حتى كاحلها المتورّم.

٤ ـ لقاء النار بالنار

كان الطقس صباح اليوم التالي صاحياً مشرقاً، عرجت ماريغولد إلى النافذة، وأخذت تنظر إلى البساط الأبيض الممتد في الخارج. تملكها الارتياح وهي ترى أن سماكة الثلج لا تزيد عن ثلاثة أو أربعة إنشات.

عندما دخلت إلى غرفتها مساء أمس وجدت أن حقيبة ملابسها قد سبقتها. يبدو أن ويلف أحضرها من السيارة الليلة الماضية ووضعها في زاوية في غرفة النوم، لكن الصندوق الذي يحتوي على أدوات الزينة لا يزال على المقعد الخلفي لسيارتها ميرتيل.

تأوهت وهي تنظر إلى صورتها في المرآة. بدا وجهها أشبه بوجه حيوان الباندا الصغير الأبيض. لم يكن عليه سوى بقايا من الكحل الذي سال تحت عينيها لأنها لم تمسحه بشكل صحيح بل غسلته بالماء والصابون قبل أن تصعد إلى السرير.

كان كاحلها المصاب ينبض بالألم ما جعلها تصرف بأسنانها متأوهة. وفيما هي واقفة أمام مرآة الزينة انفتح الباب ودخلت برتا حاملة صينية الإفطار. قالت لها ببشاشة: «آه، لقد استيقظت باكراً وتبدين مشرقة الوجه. ظننتك ستنامين حتى أوقظك بنفسي بعد حبة المنوّم تلك. عندما أصبت في ركبتي أعطاني حبة مثلها فبقيت نائمة إلى منتصف النهار تقريباً. كيف حال كاحلك هذا الصباح؟».

قالت كاذبة على أمل ألّا تبقى في ضيافة فلين يوماً آخر: «ليس سيئاً».

ـ هذا جيد. والآن عودي إلى سريرك وتناولي فطورك. وعندما تنتهين، هناك حبتان مضادتان للآلام على الصينية. يرى السيد مورو أنك ستحتاجينهما.

إنها تحتاجهما بكل تأكيد، كما أخذت ماريغولد تفكر ساخرة عندما عادت إلى السرير. فحتى غطاء السرير الخفيف جعلتها تشعر بالألم كما لو أن وزنه عشرة أطنان.

على أيّ حال، ساعدها الإفطار الجيد مع الحبتين المضادتين للآلام بالإضافة إلى الحمام الساخن على الشعور بالتحسن.

لحسن حظها وجدت كريماً لتنظيف الوجه في الحمام فقامت بتنظيف بقايا الكحل عن عينيها، ثم جففت شعرها. أخرجت من حقيبتها ملابس داخلية نظيفة وكنزة وبنطلون جينز فشعرت عندئذٍ بتحسن أكبر مما كانت عليه عندما استيقظت من النوم.

فعلى الأقل عاد إلى وجهها بعض لونه الطبيعي، كما فكرت وهي تحدق إلى انعكاس صورتها في المرآة. تأملت هيئتها من الرأس حتى القدمين، ثم غادرت غرفتها بعد ساعة أو أكثر. لكنها لم تستطع أن تلبس فردة الحذاء أو الجورب في قدمها المصابة بل وضعتهما في الحقيبة. لكن هذا لم يسبب لها القلق، فستعالج الأمر بشكل ما، كما صممت وهي تعيد لفّ قدمها بالرباط.

تمكنت من استعمال العكازين بشكل جيد وهي تخرج من الشقة إلى ردهة المنزل إلا أنها كادت تقع على وجهها عندما ظهر فلين فجأة عند عتبة إحدى الغرف.

ـ صباح الخير.

حيّاها وهو يبتسم بأدب فأرغمت ماريغولد نفسها على رد التحية وهي تجاهد للتحكم في نفسها. منذ فتحت عينيها هذا الصباح وهي تعدّ نفسها لهذه اللحظة، لكن ذلك لم يجعل لقاءها به أسهل على الإطلاق. كان فلين يرتدي قميصاً مفتوحاً عند العنق فيما الكمان مثنيان حتى الكوعين كاشفين

عن ذراعين قويتين، بدا وكأنه يملأ الباب برجولته الصارخة.

ربما لم يتعمد أن يبدو مرهباً بهذا الشكل، كما حدثت ماريغولد نفسها بصمت، لكن مظهره الوسيم ينطوي على قوة مغناطيسية تجذبها بالرغم منها.

أحست أن جوّاً من التنائي والحياد الهادىء يحيط به. ومع ذلك كان فيه ما يجعل أي امرأة تتساءل أي نوع من الرجال هو حين يقع في الحب.

تخلصت من هذه الأفكار وهي تقول بلهجة رسمية: «صباح الخير. يجب أن أشكرك مرة أخرى على الشهامة التي أظهرتها بالأمس».

قال وهو يشملها بنظراته بثبات: «هذا ليس ضرورياً. كيف حالك؟».

ـ بأحسن حال. لا حاجة حقاً لأن أفرض نفسي عليك أكثر من ذلك. ولكن إذا ساعدني ويلف على أخذ أغراضي إلى الكوخ، فهذا سيكون عوناً كبيراً لي.

ـ أنا واثق من أن بالإمكان ترتيب كل شيء.

تملك ماريغولد الاستياء وشعرت بالارتباك والسخونة. لكن فلين بدا بالغ الهدوء، فأرغمت نفسها على رسم ابتسامة أخرى على شفتيها: «شكراً، هل أنتظره في غرفتي إذن؟»

ـ أنا أعرف أن بداية تعارفنا كانت سيئة في الأمس، لكنني لا أعض في الواقع، كما تعلمين.

ـ ماذا؟

تساءلت في البداية عما إذا سمعت جيداً ما قاله. نظرت إلى وجهه ورأت تألقاً مقلقاً في عينيه فقالت:

ـ لم أفهم ما تعنيه.

ـ كلما وقع نظرك عليّ، تصبحين كقطة على صفيح ساخن. وأنا واثق من أن كاحلك ليس «بأحسن حال» كما تقولين. في الحقيقة لا بد أنك تشعرين بألم فظيع.

ـ أبداً، إنه ليس بهذا السوء في الحقيقة. فقد خففت الحبوب المسكنة

الكثير من معاناتي.

ـ حتى لو لم تكوني حفيدة ماغي حقاً، يمكنك البقاء هنا إلى أن تتحسن حالتك. فلا حاجة بك أبداً إلى أن تهربي كفأرة متوترة.

قال هذا وهو ينظر بحدة إلى وجهها المتوهج، فجمدت مكانها وتملكها الغضب على الفور. وبما أنّ ماريغولد وحيدة أبويها، فقد تعلمت منذ الصغر أن تدافع عن نفسها. لم يكن لديها أخ أو أخت تركض إليهما لنجدتها، وهي لم تهرب قط من وضع أو شخص ما. والآن هذا... هذا الغريب المتغطرس، المغرور يعتقد أنه قادر وعالي الشأن ليكلمها بهذه الوقاحة. قالت ببرودة الثلج: «سامحني يا سيد مورو، لكنني ظننت أن مؤهلاتك تنحصر في مجال جراحة المخ، وليس الطب النفسي. لو كنت مكانك لاحتفظت بهواية التحليل النفسي لنفسي».

لم تعجبه لهجتها كما بدا من عينيه الضيقتين، فزمّ شفتيه، لكن صوته بدا رقيقاً وهو يقول: «إذن، فأنت لست خائفة مني؟».

ـ أنا لا أخاف من أحد.

ـ هذا حسن جداً.

بدا في صوته لكنة خفيفة للغاية. ولعلها لم تكن لكنة بل طريقة معيّنة في لفظ الكلمات بسبب تنوّع دماء أجداده.

ـ إذن ربما تحبين أن تتناولي القهوة معي. تحضر لي برتا دوماً القهوة في مثل هذا الوقت.

حدقت إليه بحذر. لم تشعر برغبة في البقاء معه على الإطلاق لكنها، طبعاً، لم تستطع أن تقول ذلك. وهكذا أومأت موافقة إلا أنها ظلت تتخذ موقف الدفاع حتى حين تنحى فلين جانباً ليدعها تدخل الغرفة.

بدا واضحاً أنها غرفة المطالعة فالكتب تغطي اثنين من جدرانها أما الثالث فتحتله نافذة كبيرة للغاية تطل على مرج أخضر. كانت النار مشتعلة في مدفأة من الرخام الأسود وقد تمدد أمامها على السجادة السميكة ذلك القط الكبير. أشار فلين إلى كرسي كبير منجّد بالجلد أمام المكتب المصنوع من

خشب الماهوغاني والمغطى بالأوراق: «تفضّلي».

أنّى لها أن تشعر بالراحة بالقرب من هذا الرجل؟ كما أخذت تفكر بأسى، وهي تجلس متوقعة أن يجلس هو وراء مكتبه حيث كان يعمل كما يبدو. لكنه، بدلاً من ذلك، نظر إليها لحظة وجالت عيناه على وجهها البيضاوي وبشرتها القمحية اللون، لتتمهلا على ملامحها الرقيقة، قبل أن يجلس على حافة المكتب أمامها ثم يقول بهدوء: «أحب أن تمضي عيد الميلاد هنا، هل في هذا بأس؟».

في هذا بأس حتماً... بل إن فيه كل البأس... راح القط راسكال يخرخر أمام دفء النيران، قبل أن يعود إلى إغفاءته الراضية.

لعل فلين يعتبرها واحدة من حيوانات جدة إيما الشريدة، كما فكرت ماريغولد وهي تشعر بالأسى، خاصة بعد أن كشفت له عن السبب الذي جعلها تمضي العيد وحدها في الكوخ. لماذا؟ لماذا أخبرته عن دين؟ أتراه يظنها تستدرّ العطف بهذا القول؟ قالت محاولة أن يبدو صوتها طبيعياً خالياً من الشعور بالمذلة: «صدقني أنني لا أستطيع ذلك. أنت قلت إن لديك ضيوفاً قادمين لقضاء العيد».

قال يذكّرها برقة: «قلت إن ضيفاً آخر لن يشكّل أي فرق».

- ومع ذلك...

- حالتك لا تسمح لك بالإقامة في ذلك الكوخ وحدك. وأنت تعلمين ذلك.

كانت على صواب، إنه يعتبرها يتيمة مسكينة. أجبرت نفسها على الابتسام: «لا أوافقك على ذلك، فلديّ الدفء والطعام. كما أريد أن أمضي عدة أيام فقط، لأن إيما ستأتي بعد فترة على أيّ حال».

تمنت لو يترك المكتب ويجلس على كرسيه فهو في جلسته هذه يبدو مرهباً بشكل مضاعف.

سألها بصوت ناعم عميق: «إذن، فأنا لا أستطيع أن أقنعك؟».

- لا، لن تستطيع.

كان جوابها من الحزم بحيث رفع حاجبيه ببطء وهو يقول بتسلية: «هذا مؤسف».

في هذه اللحظة قرعت برتا الباب، ثم دخلت تحمل صينية القهوة وعليها فنجان وصحنه وطبق مليء بأنواع الكعك المعد في المنزل، فضلاً عن إبريق القهوة الذي يتصاعد البخار منه.

- أرجوك يا برتا أن تحضري فنجاناً آخر وحليباً وسكراً. هل تأخذين حليباً وسكراً؟

أومأت ماريغولد بالإيجاب بسرعة، ثم شعرت بالارتياح عندما نزل عن المكتب وجلس على كرسيه بينما خرجت برتا.

بحثت في ذهنها عن شيء حيادي تقوله: «إذن فأنت تسكن هنا منذ عامين؟ يبدو هذا المكان نائياً وبعيداً عن لندن».

هزّ كتفيه العريضتين، فاضطربت أحاسيسها للحظة قبل أن تعود فتسيطر عليها، وأجاب: «هذا ما جعله جذاباً في نظري. كان لدي بيت في لندن، وهو بيت مربح للغاية إلا أنني كنت أبحث عن منزل كهذا منذ بعض الوقت. وعندما قرر بيتر أن يبيعه، قمت بشرائه، وانهينا المعاملات الرسمية في أسابيع. وبعد أن بعت الشقة في لندن نقلت معظم الأثاث إلى هنا. كان شرط بيتر الوحيد أن أهتم بماغي من أجله. كان مولعاً جداً بالسيدة العجوز، وقد فهمت السبب بعد عدة دقائق فقط من تعرفي إليها».

- أنا واثقة من أن أسرة إيما لم تكن تتعمد إهمالها..

فقاطعها: «وفّري عليك أي تبرير...».

فحملقت فيه. إنه أكثر الرجال الذين قابلتهم فظاظة.

عادت برتا بفنجان آخر قبل أن تفكر ماريغولد بجواب لاذع. وبينما أخذا يشربان القهوة ويأكلان الكعك، أبقى فلين الحديث ساراً سهلاً بينما جلست هي واجمة. لكنها فكرت في سرها في أن الرجل فتح لها بيته، فلا ضير من التساهل معه لعدة دقائق.

وما إن أنهت قهوتها حتى وقفت بشيء من الصعوبة، وما لبث فلين أن

وقف أيضاً. فقالت: «سأذهب إذن. شكراً لك على كل ما فعلته لأجلي».

ـ فلين.

ـ ماذا؟

فقد قال اسمه برقة زائدة.

ـ اسمي هو فلين. أنت تتجنبين الكلام معي لئلا تنطقي باسمي. أليس كذلك؟

ودّت أن تطلق عليه أسماء كثيرة لو كان يعلم.

فقالت كاذبة بسرعة بينما هي تعلم أنه على حق تماماً: «لا، أبداً».

فمناداته باسمه الأول فلين، يمنح هذا الوضع بُعداً آخر. لأنها إذا صادفته في ما بعد، لا سمح الله، لن تتمكّن من أن تعود فتخاطبه بلقبه (السيد مورو). كما أنها بحاجة إلى أن تحتفظ بمسافة بينها وبين هذا الرجل، مسافة عقلية وعاطفية و... جسدية...

فقال يكرر كلامها بتهكم ناعم: «لا، أبداً. قلت هذه الكلمة مرتين هذا الصباح، وفي كل مرة كنت تكذبين».

فحملقت فيه وقد توهج وجهها، وشعرت بمزيج من الغيظ والشعور بالذنب: «كيف تجرؤ؟ لا يحق لك أن تتكلم معي بهذا الشكل».

ـ الحق يؤخذ ولا يعطى. هل كنت تتشاجرين مع خطيبك السابق طوال الوقت ما جعله يهرب بهذه الطريقة؟

ـ لا أصدق أنني أسمع هذا...

فقال ببطء وبرودة، وقد بدت لهجته مناقضة تماماً لصوتها الهائج: «لأن هذا لا يصلح مع الرجل الحقيقي، يا حلوتي المحاربة الصغيرة».

ردّت عليه ساخطة: «وأنت رجل حقيقي أليس كذلك؟».

ـ آه، نعم.

دار حول المكتب ثم وقف أمامها، وغدت عيناه الجامدتان مليئتين بالحيوية في وجهه الأسمر، بينما التوى فمه بابتسامة ساخرة وهو ينظر إلى هياجها: «ما أنت بحاجة إليه هو رجل حقيقي يا ماريغولد. النار يجب أن

تواجه النار لئلا تموت تدريجياً وتتحول إلى رماد أو، أسوأ من ذلك، تحرق نفسها وكل ما حولها. وراء كل امرأة سليطة اللسان رجل ضعيف».

إنها المرة الأولى التي تشعر فيها ماريغولد بالغضب إلى حد تعوزها معه الكلمات. أخذت عيناها تقذفان شرراً أزرق بينما توهج وجهها غضباً. ثم حاولت، بصمت، أن تتمسك بالعكازين. شعرت بأنها مستعدة لدفع كل ما تملكه في هذه اللحظة في سبيل أن تصفع بكل قوتها وجهه المتغطرس الشامت، رغم حجمه الكبير.

استدارت عنه بغضب وتوجهت إلى الباب، لكن فلين سبقها ليفتحه لها بحركة شبه مسرحية وهو يقول بهدوء: «هل اتصل بويلف لينزل لك أمتعتك؟».

ـ شكراً.

قالت هذا بحدة فالتوت شفتاه. ورأت نظرة الهزء التي لم يستطع أن يخفيها في عينيه، فتجاهلتها وأسرعت نحو الردهة بقدر ما أمكنها من سرعة، ومنها إلى الممرّ الصغير الذي يؤدي إلى جناحها. فتحت الباب المؤدي إلى غرفة الجلوس بأصابع مرتجفة وهي من الاستياء بحيث لم تعلم ما إذا كانت تريد أن تبكي أو تصرخ. وكادت، أثناء ذلك، تفقد توازنها.

لكنها لم تبك ولم تصرخ. وإنما جلست تنتظر ويلف منتصبة الظهر، متوهجة الوجه، بعد أن أغلقت حقيبة ثيابها وارتدت معطفها الصوفي. يا له من رجل صعب! إنه صعب للغاية! هي لم تطلب منه العون منذ البداية. لكن عقلها قاطعها... فقد كانت ترجو أن يوصلها إلى كوخ إيما عندما صادفته في الطريق. ولكن هذا كل شيء. لم تطلب منه المجيء إلى هنا. ولم تطلب قضاء الليل. كما أنها حتماً لم تطلب رأيه فيها أو في حياتها.

مضت عشر دقائق أخرى قبل أن يقرع ويلف الباب، وكانت ماريغولد قد هدأت، ظاهرياً على الأقل، أما في داخلها فلا تزال تشعر بالغليان... وتود أن ترفس شيئاً.. أو شخصاً في الواقع. كان ذلك الشخص ينتظر في الردهة عندما تبعت ويلف إلى البيت الرئيسي. وعندما تابع الرجل سيره

بالحقيبة، قالت ماريغولد لفلين بجفاء بالغ: «هل لك أن تبلغ شكري لبرتا لاهتمامها بي؟».

ـ بكل تأكيد.

وتناول سترة جلدية كانت ملقاة على الكرسي، ثم فتح الباب الخارجي على اتساعه لتتمكن من الخروج.

وتابعت تقول متوترة، وقد أزعجها خروجه معها ليراقبها وهي راحلة: «سأطلب من إيما أن تعيد العكازين عندما تصل».

إلا أن الأمر لم يكن كذلك! فالسيارة الضخمة ذات قوة الدفع الرباعية متوقفة على طريق المنزل وقد وُضعت حقيبتها على المقعد الخلفي، لكن لا أثر لويلف. وصلت ماريغولد إلى السيارة وفلين خلفها. وما إن قال: «هيّا، دعيني أساعدك»، حتى وجدت نفسها محمولة بين ذراعيه وهو يضعها على المقعد بجوار مقعد السائق، وذلك قبل أن تتمكن من الاحتجاج. ثم صعد هو إلى مقعد السائق خلف عجلة القيادة بأعصاب باردة تماماً.

ـ ماذا تفعل؟

بدا صوتها حاداً مرتفعاً، لكنها لم تستطع منع نفسها.

فسألها: «قلت إنك تريدين الذهاب إلى الكوخ. فهل غيّرت رأيك؟»

ـ لا. أنا لم أغير رأيي. لكن ظننت أن ويلف سيأخذني.

ـ لا أدري من أخبرك بذلك. وكما أتذكر، أنا لم أقل شيئاً سوى إنّ ويلف سيحضر حقيبة ثيابك إلى السيارة.

ـ لكنني أخبرتك...

ـ آه، لا حاجة لأن يخبرني أحد بشيء، يا ماريغولد، لقد سبق واتفقنا. لا تتوقعي مني أن أنتدب ويلف ليوصل ضيفتي إلى مكانها الجديد بينما أنا هنا. ستبقى سيارتك مع ويلف خلال هذين اليومين. لكن بما أنك لن تتمكني من القيادة بسبب قدمك المصابة، فلا أظن أن هناك داعياً للعجلة.

بدا ذلك منطقياً للغاية ما جعل ماريغولد تشعر وكأنها طفلة متمردة. ربما كان هذا ما يريدها فلين أن تشعر به بالضبط، كما أخذت تفكر بضيق.

طوت السيارة المسافة عبر الوادي إلى الكوخ بغمضة عين، أو على الأقل هذا ما شعرت به. انكمشت لفكرة دخولها إلى هذا المنزل المظلم الصغير الرطب مرة أخرى، لكنها لن تستطيع الاعتراف بذلك الآن. بدت شمس الشتاء الباهتة مشرقة بشكل رائع في الخارج، هذا ما خطر لها فيما كان فلين يوقف السيارة عند البوابة الصغيرة، ثم يسير حول السيارة ليساعدها على النزول.

قوّت نفسها في مواجهة الهواء الرطب والصقيع، بينما فتح فلين باب الكوخ بالمفتاح. وكانت قد أعطته إياه أمس لكي يقوم ويلف بتهوئة الكوخ وتدفئته. وبدلاً من رائحة الرطوبة الكريهة وجدت الردهة الصغيرة مشرقة دافئة مرحّبة بالضيوف.

فتح لها باب غرفة الاستقبال، وإذا بها ترى أن غرفة الأمس ذات الرائحة العفنة الرطبة قد تحوّلت إلى غرفة دافئة مشرقة، رغم أنها ما زالت مكتظة بالأثاث. كما أن النار تضطرم في المدفأة. وكان هناك زهريتان تحتويان على أزهار ملوّنة عطرة، أضفتا لمسة حميمة على المكان، وقد أزيحت الستائر فبدا المشهد الخارجي الأبيض رائعاً.

قال فلين بهدوء: «تركنا التدفئة الكهربائية تعمل ليلاً نهاراً، مع أن ذلك يشكل ضغطاً على الكهرباء، لكنه ضروري. والآن أظن أن التدفئة بالنار هنا وفي غرفة النوم باتت كافية».

ـ هذا جميل.

لم تصدق أن جمر الحطب والأزهار يمكن أن تسبغ على المكان مثل هذا السحر والفتنة. بدا كل شيء مختلفاً. وفجأة، رأت الكوخ بعيني جدة إيما فهفا قلبها إلى تلك المرأة العجوز التي كافحت طويلاً لتبقى في بيتها.

عرجت إلى غرفة النوم حيث وجدت مدفأة أخرى تتأجج بالنيران، وقد أبدلت الملاءات بأخرى نظيفة ووضع غطاء مطرز رائع بلون القشدة على السرير. تمكنت ماريغولد من تمييز التصميم: «هذا الغطاء من بيتك، أليس كذلك؟»

قالت هذا ببطء فيما وقع نظرها على مزيد من الأزهار موضوعة على منضدة الزينة وصندوق الأدراج.

هز فلين كتفيه: «إنه فائض عن الحاجة كما أظن، كان لدى برتا في خزانتها».

قال هذا بعدم اهتمام، فسألته: «والأزهار؟».

ـ لدى ويلف مستنبتان يحتفظ فيهما بما تحتاجه برتا من الأزهار للبيت. وهناك دوماً أكثر مما نحتاجه.

لم تخدع تلك الكلمات العفوية ماريغولد. لقد نظم فلين كل هذا، وهي شاكرة له. لكنها شعرت بالخوف من هذا السرور الذي اجتاحها. ربما كان سيفعل الأشياء نفسها لكل تائه يكتشفه في العاصفة، ذكّرت نفسها بذلك ساخرة. فهذا لا يعني شيئاً. إنه عمل حسن. حسن لا غير وهي لا تريده أن يعني شيئاً.

ـ إنه مختلف للغاية.

التفتت إلى الوراء وكان فلين يقف خلفها مباشرة عند عتبة غرفة النوم. لكنه لم يتحرك فقالت بسرعة: «ما كان لك أن تزعج نفسك. لكنني أقدّر لك هذا. بكم أدين لك ثمناً للوقود؟»

فقال برقة: «لا تكوني سخيفة».

شعرت بخفقات قلبها تتسارع، خفقات سريعة مذعورة جعلتها غير قادرة على التفكير بشكل مترابط. رفعت بصرها تحدّق إليه، وعادت تلحّ قائلة: «لكن يجب أن أدفع لك. فمن غير الممكن أن...».

مدّ يديه يمسك بذراعيها ثم أحنى رأسه وعانقها... بدأ عناقه رقيقاً ناعماً ولم تحاول ماريغولد أن تدفعه عنها، ما جعل عناقه يزداد قوة.

ـ شعرك ناعم كالحرير.

تمتم بذلك برقة ويده مشتبكة بشعرها الناعم: «كما أن لونه ساحر. لم أر امرأة قط لها مثل شعرك الرائع. هل تعرفين هذا؟».

لم تجبه ماريغولد... لم تستطع أن تجيبه. كانت مذهولة ومضطربة تماماً

لهذه المشاعر التي أثارها فيها عناقه... لم يتملكها هذا الشعور قط طوال عهدها مع دين.

أبعدها عنه قليلاً وببطء ثم قال برقة: «أترين؟ لقاء النار بالنار».

حدقت ماريغولد إليه وقد فقدت عيناها انبهارهما وتعبيرهما، ما إن تجلت أمامها الحقيقة بكل برودتها المرعبة. هذا الرجل لم يعجبها منذ البداية ومنذ تعارفهما لم يتبادلا أكثر من كلمات معدودة مهذبة، وهي سمحت له... لم تشأ أن تفكر بما سمحت له به.

ويبدو أنه أحس بما يجول في خاطرها. لذا بدا صوته، عندما تكلم مرة أخرى، جافاً يحمل لمحة من التسلية الخفية التي سمعتها عدة مرات من قبل: «لا بأس يا ماريغولد. كان هذا مجرد عناق».

لا، لم يكن مجرد عناق، كما فكرت بمذلة... ليس بالنسبة إليها على الأقل. بل إنها أكبر تجربة ناسفة للدماغ عرفتها في حياتها وقد علمتها عن نفسها في لحظات قليلة أكثر مما تعلمته في سنواتها الخمس والعشرين الماضية. ولو أن شخصاً أخبرها أن بإمكانها أن تفقد عقلها بهذا الشكل لمجرد عناق لسخرت منه في وجهه. لكن هذا ما حصل... ولا ينبغي أن يحصل مرة أخرى.

ـ أتركني من فضلك.

كان صوتها خافتاً لكنه واضح. واستجاب فلين لطلبها على الفور.

ما الذي يفكر فيه؟ أخذت تتساءل بيأس صامت. بالأمس أخبرته أنها جاءت إلى كوخ إيما لتداوي جراح قلبها... واليوم، في اليوم التالي تماماً كادت تذوب بين يديه!.

ـ لن أقول إنني آسف لأنني عانقتك، لأنني أردت أن أفعل هذا منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها على الطريق، كما أنني لن أتظاهر بأنني لم ألاحظ استمتاعك بذلك.

لم تنكر هذا. لا فائدة من ذلك... كما أن ماريغولد ليست من النوع الذي يتملص من نتائج أعماله. وبدلاً من ذلك رفعت ذقنها وقد ضاقت

عيناها... ثم قالت متوترة: «أريدك أن ترحل الآن، لكنني أولاً أريد أن أدفع لك ثمن الحطب والفحم».

فقال بصوت خشن: «لم يكن سوى عناقاً».

وتخلل شعره الكث بأصابعه ما أنبأ بإحباط بالغ: «بين شخصين راشدين راضيين».

قالت هذا غاضبة، كما لو أنه أخبرها بأنها تأتي في الدرجة الثانية بعد امرأة أخرى: «ما كان لذلك أن يحدث على الإطلاق. فأنا أكاد لا أعرفك».

رفع حاجبيه ساخراً وهو يشبك ذراعيه على صدره: «إسمي فلين مورو، في الثامنة والثلاثين من العمر، عازب وذو عقل سليم. أهناك شيء آخر تعتبرينه هاماً؟».

ـ هناك الكثير.

فقال برقة بالغة: «علينا إذن أن نبحث هذا الأمر في وقت آخر».

فجأة لم يعد يبتسم.

ـ لا أظن ذلك.

حاولت جاهدة أن تجعل صوتها يبدو حازماً رغم أن قلبها كان يذوب. أتراه يهتم بها؟ لم تستطع أن تصدق ذلك تماماً. من كان بمثل نجاحه وثرائه ويتمتع بهذه القوة والنفوذ، سيفضل امرأة شقراء طويلة القامة والساقين وتشبه عارضات الأزياء... من نوع تامارا... أما هي فطولها لا يتعدى المئة والستين سنتيمتراً، شعرها كستنائي ناعم وبشرتها يكسوها النمش في الصيف. حتى أمها لا تستطيع أن تصفها بأنها ذات جمال خلاّب. لا شك أنه يرغب ببعض التسلية أثناء الإجازة، خصوصاً وأنها في متناول اليد.

ـ لا. أما زلت مهتمة بما كان يمكن أن يحدث؟

كان في صوته سخرية ناعمة للغاية. ولم يبد عليه أي ضيق لرفضها له ما جعلها واثقة من نظريتها أكثر من أي شيء آخر. لكنها وللوهلة الأولى، لم تفهم ما كان يشير إليه. ثم تذكرت دين. دين، الذي لم يثر أي إحساس فيها بالمقارنة مع هذا الرجل، والذي أصبحت ذكراه الآن بعيدة تماماً عنها.

ـ لا، أبداً...

وسكتت فجأة عندما لمعت عيناه الفضيتان تحدياً. ثم عادت تتابع بحزم: «لا، لم أعد مهتمة بما كان يمكن أن يحدث. في الواقع، بدأت أفكر منذ بعض الوقت في أنني كنت محظوظة لخلاصي منه».

حصل ذلك منذ عانقها فلين. وأدركت، للمرة الأولى، ما معنى أن تتجاوب مع الرجل بحميمية مشابهة. ما كانت ستشعر بذلك مع دين ولو بعد مليون سنة.

قال على الفور: «لكنه هز ثقتك بالرجال. أليس كذلك؟»

نعم، هذا ما حصل، وأزعجها أنها لم تدرك ذلك حتى الآن أيضاً، كما أخذت تفكر بضيق. وهذا السيد (الذي يعتبر نفسه عالماً بكل شيء) سيبتهج للغاية إذا اعترفت له بأنه على صواب. فقالت بتكلف: «آسفة إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تجعلك تتقبل فكرة أنني لا أريد أن أعرف عنك المزيد».

ـ وهكذا أنا لست على صواب؟

تنفست بعمق ثم أجابت كاذبة: «لا، أنت لست على صواب».

ابتسم فلين وأحست ماريغولد أن ابتسامته تلك عدوانية كابتسامة سمك القرش. ثم قال بظرف: «أنا مسرور لأنك لست بارعة في الكذب يا ماريغولد. أنا حقاً أكره ذلك في المرأة. والآن هناك غرفة صغيرة خلف الكوخ في الحديقة اعتادت ماغي أن تضع فيها الدجاجات عندما ينزل المطر، وقد خزن ويلف فيها من الفحم والحطب ما يكفيك لأكثر من أسبوعين. وعليك أن تبقي النار مشتعلة ليلاً نهاراً. أنت تعرفين كيف تشعلين النار، أليس كذلك؟».

لم يكن لديها فكرة عن ذلك، لكنها أومأت بكبرياء: «طبعاً أعرف».

نظر إليها ساخراً: «كثير من رقائق الفحم وقشور الفاكهة تنجز المهمة. وكذلك أوراق الشاي، وهذا النوع من الأشياء. كومي هذه الأشياء وتأكدي من أن كمية الهواء التي تتخللها قليلة جداً قبل أن تشعلي النار،

بهذه الطريقة يبقى لديك كمية جيدة من الجمر في الصباح».

وفكرت بلؤم أنّ كلامه أشبه بتعليمات لخادمة البيت. وعلى الفور شعرت بالخزي من نفسها عندما أضاف فلين يقول: «كل بقالتك موضوعة في الخزائن والثلاجة ممتلئة أيضاً، ولكن من دون قسم التجليد مع الأسف».

ـ حسناً، شكراً، والآن ماذا أنا...؟

قاطعها محذراً وعيناه تلمعان: «إذا ذكرت دفع الثمن مرة أخرى فسأقبل، ولكني لن أقبل بالنقود، هل فهمت؟».

فتحت فمها لتحتج، لكن نظرة واحدة إلى عينيه أنبأتها أنه يعني ذلك فعلاً. فعادت وأقفلت فمها. ولحسن الحظ أنه لن يعلم أبداً ما أثارته كلماته في نفسها من شوق.

ـ خذي هذه الحبوب وتناولي حبة كل ست ساعات. لا تتناولي أكثر من ثماني حبات كل أربع وعشرين ساعة.

قال هذا بهدوء وقد ارتد فجأة إلى وقاره المهني، فيما هو يخرج من جيبه علبة حبوب مسكنة للألم: «ستخلصك هذه الحبوب من الألم إلى أن يشفى كاحلك».

أومأت، وهي تتمنى أن يذهب بسرعة فهي بحاجة إلى وقت تحلل فيه مشاعرها واضطرابها البالغ. وما دام يقف هنا أمامها، فلا مجال لأن تسيطر على مشاعرها.

اقترب منها مجدداً ورفع ذقنها لينظر إلى وجهها: «إلى اللقاء، يا ماريغولد».

ـ إلى اللقاء.

وفجأة، ولسبب غير عقلاني أدهشها، أرادت أن تتوسل إليه لكي يبقى. لكن هذا جنون، كما حذرت نفسها، متسائلة عما إذا كان سيعانقها مرة أخرى.

لكنه لم يفعل. وعندما رأته يسير نحو الباب شعرت الاستياء وراحت تتساءل عن السبب الذي منعه من معانقتها. ولكن، هل تشعر بالجاذبية

نحوه؟ لا. لا يمكن أن تسمح لنفسها بذلك. حياتها حالياً صعبة بما يكفي. آخر ما تريده الآن هو رجل معقّد مثل فلين!

تبعته إلى الباب الخارجي. وأخذت تنظر إلى ذلك الرجل الطويل الأسمر وهو يسير بخطواته الواسعة على الثلج عبر الحديقة. بدت السماء فوقهما صافية، وقد أحالت شمس الشتاء الباهتة الثلوج إلى صفائح لامعة كالماس، ما جعل آثار قدميه تبدو كفجوات عميقة مثله... واسعة... أوسع من الحياة.

ضاقت عينا ماريغولد بسبب أشعة الشمس وراحت أفكارها تتسارع. كان فلين من أولئك الأشخاص الذين يصادفهم الإنسان مرة في الحياة... ذلك النوع الذي يبعث الحيوية والإثارة أينما ذهب. والتورط مع شخص كهذا وبأي شكل كان، هو شيء مهلك تماماً.

لقد حدثها عن اجتماع النار بالنار، لكنه لا يعرفها في الحقيقة. فهي مجرد فتاة عادية. كل ما ترغب فيه في النهاية هو بيت وأسرة وحياة هادئة مع الرجل المناسب. وأكثر من أي شيء، تريد رجلاً يحبها، يحبها وحدها، رجلاً يراها رائعة كما هي، فلا تقفز عيناه وراء كل شقراء طويلة ذات ساقين تصلان إلى ما تحت إبطيها.

نظرت إلى السيارة الضخمة الفارهة وهي تبتعد، ورفعت يدها للحظة قصيرة ترد على تلويح فلين لها بيده. ولم تلحظ أنها كانت تبكي إلا بعد أن عادت تحجل إلى البيت، ومن ثم إلى المطبخ لتعد لنفسها كوب شاي منعش.

* * *

٥ ـ غريب وزنبقتان

وبعزيمة لم تكن ماريغولد تعلم أنها تملكها، أزاحت كل الأفكار المتعلقة بفلين مورو من ذهنها بقية ذلك النهار وفي المساء. ومع أنه في الواقع، كان يحاول غزو ذهنها إذا ما تخلت عن الحذر ولو لثانية واحدة، إلا أنّ صوت الراديو المرتفع والكتاب المفتوح أمام عينيها، نجحا في إبعاده.

عندما دخلت إلى المطبخ بعد ذهاب فلين، وجدت أن الثلاجة والخزائن ممتلئة بمواد غذائية متنوعة لم تكن قد اشترتها. كما وجدت بعض الكماليات المترفة التي جعلتها تفتح عينيها على اتساعهما، زجاجات عدة من العصير، علبة كبيرة من الشوكولا، قالب حلوى يسيل له اللعاب . . . وتتابعت القائمة.

نظرت ماريغولد إلى هذا كله بمزيج من الضيق والسرور، ثم نظرت من الباب الخلفي إلى الخارج فرأت من الفحم والحطب ما يكفي لشهرين وليس لأسبوعين فقط. لا يمكن اتهام فلين بالبخل أبداً. وعضت شفتها بشدة عندما أشارت الساعة الموضوعة على رف المدفأة إلى الحادية عشرة، وإذا بأفكارها تعود إلى فلين مرة أخرى.

كانت قد سكبت لنفسها كوباً من العصير، وتناولت عشاءها المؤلف من بفتيك مشوي مع الفطر والبندورة. فكرت بهذا الاختلاف بكآبة وهي تصعد إلى سريرها بعد دقائق. بدا السرير مغرياً بملاءاته المنشاة المعطرة وغطائه المطرز. وتذكرت السرير الذي ألقت عليه نظرة مختصرة في اليوم السابق، كان منظره مزرياً فقد كومت عليه بطانيات قديمة رثة المظهر ولحاف

بدت آثار العث على كيسه ذي اللون الوردي الحائل.

كانت قد اتبعت نصيحة فلين وأشعلت النار حسب إرشاداته. والآن، أخذ اللهب الأزرق والبرتقالي يتصاعد من المدفأة محدثاً ظلالاً، راحت تتراقص في الغرفة بخفة. بعثت قرقعة الحطب في نفسها ارتياحاً ورضىً هائلين. ما أجمل أن ينظر المرء إلى النار المتوهجة فيما هو يندس في الفراش، هذا ما خطر لها ناعسة. إنها تفهم الآن لماذا كافحت جدة إيما من أجل البقاء هنا زمناً طويلاً. مع قليل من العناية يمكن لهذا المكان أن يغدو متألقاً.

كانت غرفة النوم واسعة جداً، لكنها لم تبدُ كذلك لكثرة ما فيها من أثاث. وإذا اقتصر الأثاث على السرير مع خزانة أصغر حجماً، ستبقى فسحة كافية للعمل. يمكنها عندئذ أن تضيف إلى الغرفة كرسياً ولوحاً للرسم وكل شيء آخر تحتاجه . . .

توقفت ماريغولد فجأة عن التفكير، وجلست في السرير. أزاحت شعرها عن وجهها، وهي تدرك إلى أين وصلت بها الأفكار. أتراها لا تزال تفكر جدياً في شراء هذا الكوخ من إيما؟ ماذا بالنسبة إلى كل هذه المضايقات؟ ماذا بالنسبة إلى فلين مورو؟

جلست دقائق عدة تحدق إلى الفراغ، قبل أن تعود فتندس في فراشها مرة أخرى. أخذت خفقات قلبها تتسارع وهي تفكر في أن فلين سيكون أقرب جيرانها. وتوقفت عند هذه الفكرة للحظة، قبل أن تصرفها بشيء من الأسى.

لا مزيد من التفكير بهذا الأمر لهذه الليلة. غداً ليلة الميلاد وهي هنا في كوخ صغير والثلج يحيط بها، ولديها أكوام من الطعام والشراب. لا بأس في أن تكون وحدها ولو لمرة. وهي ستستمتع بعيدها . . . ربما بهدوء، ومع ذلك ستستمتع به ولن تفكر في شيء آخر. ربما لن ترى فلين مورو بعد اليوم، على أيّ حال.

نامت خلال دقائق، ولم يخطر في بالها، حين انجرفت نحو نوم من دون أحلام، أنها لم تفكر ولو مرة واحدة في دين وتامارا وذلك خلال ساعات.

عند الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي دق جرس باب الكوخ، ما جعل ماريغولد تستيقظ فزعة. مرّت لحظات لم تعرف فيها أين هي. وعندما تذكرت كل شيء، ألقت بالأغطية جانباً ثم تناولت رداء النوم الصوفي السميك وهو هدية عيد الميلاد منها لنفسها، وكانت قد رأت إحدى الممثلات على الشاشة الفضة تلبس مثله. ورغم أنه كلفها الكثير، إلا أنه جعلها تشعر بالأنوثة بشكل رائع. فمنذ نجحت تامارا في سرقة خطيبها منها، شعرت أنها بحاجة إلى أن تشعر بأنوثتها أكثر.

حاولت أن تقف على قدمها المصابة بحذر، وعندما شعرت بقدرتها على السير أخذت تعرج بحذر إلى الباب من دون عكازين وهي تتساءل عما إذا كان ويلف في الخارج مع سيارتها ميرتيل. أزاحت شعرها عن وجهها ثم فتحت الباب.

ـ صباح الخير.

لاحظت أن الثلج يتساقط من جديد، وشعرت بدوار في رأسها وهي تنظر إلى عينين جامدتين فوقهما شعر فاحم السواد غطته قطع الثلج، قبل أن ترغم نفسها على أن ترد: «صباح الخير».

ـ هل أيقظتك من النوم؟

ولم يبد عليه الأسف على الإطلاق. كانت عيناه في الواقع تتفحصانها باستمتاع.

ـ نعم.

وافقته بغموض متسائلة كيف يكون لأي رجل الحق في أن يبدو جذاباً إلى هذا الحد في حين لم تغسل حتى أسنانها بعد: «لم أزعج نفسي بربط المنبه».

ـ لقد أحضرت لك شيئاً.

وأشار إلى جانبه فنظرت ماريغولد لترى شجرة عيد ميلاد صغيرة جميلة للغاية: «أحضرنا لتوّنا شجرة للبيت، وكانت هذه بجانبها وبدت لي بحجم

مناسب للكوخ، وقد فرزت برتا لك بعض الزينة. وضعت الشجرة في حوض مناسب، وعليك أن تبقيها رطبة وبذلك يمكن أن تعود إلى الغابة بعد العيد».

ـ هذا حسن.

أدركت أنها لم تبد شاكرة له، لكنها كانت واعية تماماً لشعرها المشعث ووجهها العديم الزينة.

ـ كيف حال قدمك؟

ـ قدمي؟

وجاهدت لتتمالك نفسها: «آه، قدمي! يبدو أنها تحسنت قليلاً. شكراً».

ـ هذا حسن.

ووقف ينظر إليها بعينين لامعتين: «ما من قهوة في الداخل، أليس كذلك؟»

احمر وجه ماريغولد. بعد كرمه البالغ، لا يمكنها أن تبخل عليه بفنجان قهوة.

لكنه بدا بالغ الأناقة حتى أن كل شعرة في رأسه بدت في مكانها، بينما هي... حسناً، لم تكن كذلك.. وتركزت نظراتها على جرح خفيف في ذقنه المربعة، ثم وجدت نفسها فجأة محبوسة الأنفاس.

ـ ماريغولد؟

طرفت بعينيها وهي تدرك أنه قال شيئاً لكنها لم تسمع منه أيّ كلمة.

ـ قلت إذا كان في ذلك أي إزعاج...

ازداد احمرار وجهها وقالت باستياء: «طبعاً لا».

ثم لطّفت صوتها وهي تضيف: «أرجوك أن تدخل. ويمكنك أن تضع الشجرة في غرفة الجلوس بجانب المدفأة إذا لم يكن لديك مانع. إنها... إنها حلوة جداً».

ـ نعم، إنها كذلك.

وافقها على ذلك، لكن عندما نظرت إلى عينيه وجدت أنهما تضحكان لها وليس للشجرة.

في غرفة الجلوس، نظر منتقداً إلى النار الخامدة تقريباً: «إنها على وشك الانطفاء. اصنعي القهوة بينما أضرم النار».

وخلع سترته ووضعها على الأريكة وهو يقول: «هل رأيت الدلو القديم الذي كانت ماغي تستعمله للرماد الساخن؟»

قالت له بسرعة: «سأحضره. إنه في خزانة المكانس. انتظر هنا».

كان المطبخ القديم الطراز ضيقاً. ومجرد التفكير في أن تكون هي وفلين محشورين في مثل هذا المكان الضيق مثبط للهمة.

فتحت باب الخزانة وأخرجت الدلو، ثم استدارت. وإذا بها تطلق صرخة دهشة حين وجدت فلين خلفها مباشرة.

ـ ما كان لك أن تسيري على كاحلك الآن. أين العكازان؟

كان فلين يرتدي بنطلون جينز حائل اللون وكنزة كبيرة. بدا واضحاً أنه ارتدى ثياباً تسمح له بالسير تحت الثلج لكي يحضر شجرة العيد. كانت ملابسه نظيفة لكنها رثة قليلاً وبعيدة عن تلك الملابس الأنيقة التي رأته فيها من قبل، فسألت نفسها بضعف: لماذا تبرز رجولته السمراء بشكل أفضل من تلك الملابس الأخرى؟

وأرغمت نفسها على التركيز وهي تجيب: «العكازان بجانب السرير، كما أظن. لكنني أفضل السير بدونهما إذا استطعت. الأبواب الضيقة هنا ولا تسمح لساقين إضافيتين بالمرور».

فوافقها بسهولة: «ولا لشخص يفوق طوله المئة والسبعين سنتمتراً. فبعد عدة زيارات لماغي تعلّمت أن أحني رأسي لأمر عبر الأبواب».

ابتلعت ماريغولد ريقها وحاولت أن تبتسم. كان جسمه من القرب منها بحيث أرغمها على الانتباه إلى دفئه الرجولي والرائحة الخفيفة التي تفوح من جلده الأسمر... رائحة خفيفة غامضة تسبب رد فعل في جسدها، هي في غنى عنه. المشكلة هي أن فلين رجل مثير للاضطراب إلى حد أن مجرد

وجودها قربه يثير فيها الارتباك البالغ كما اعترفت لنفسها باستياء.

حملت الدلو، غير واعية إلى أنها تستعمله كدفاع ضد قربه منها: «سوف... سوف أضع إبريق الماء على النار. يبدو أن ماغي لم تكن تحب القهوة».

ـ لا. فقد كانت مغرمة بفنجان الشاي والفطيرة المدهونة بالزبدة. هناك بعض الكعك المملح في صندوق الخبز مع بعض الخبز البيتي من صنع برتا إذا كنت تنوين تقديمه.

لم تجب على الفور لكنه تمتم بمكر: «بعد العمل في الهواء الطلق فترة، يبدو للمرء وكأنه تناول فطوره منذ سنوات».

ـ آه، آسفة. ظننتك أحضرت شجرتي عيد ميلاد وليس غابة بأكملها.

ضحك لها من دون أن يتراجع عن إلحاحه. وتردّدت هي ثم وافقت على الفور، راجية أن يبتعد عنها قليلاً: «فليكن الكعك المملح إذن. وأظنك تعلم أيضاً مكان حفظه؟»

ـ الخزانة الشمالية فوق حوض الغسيل وأنا أفضل الزبيب الأسود.

ـ ستحصل على ما طلبته.

ـ وعود... كلها وعود...

لكنه حمل الدلو وخرج من المطبخ، فاستطاعت أن تتنفس مرة أخرى. ثم ناداها من فوق كتفه: «ولا تحاولي أن تحملي صينية أو أي شيء آخر. سآتي لأحملها بنفسي حالما تشتعل النار».

وعند العاشرة والنصف، كانت ماريغولد تجلس أمام نار متوهجة متناقضة بشكل رائع مع الثلج المنهمر في الخارج، وهي تأكل الكعك المملح المسخّن في فرن المطبخ القديم. وكان فلين قد التهم خمس كعكات فيما اكتفت هي بكعكتين فقط. سألها متأملاً: «هل تذوّقت يوماً الخبز المحمص على النار؟»

ـ لا أظنك جائعاً بعد.

ـ أنا أحرق الكثير من الطاقة.

ونظر إليها من فوق كوب القهوة فلم تسأله كيف.

عثرا على شوكة لتحميص الخبز بين الأدوات المعلقة على جانب المدفأة. وعندما فاحت رائحة الخبز المحمص وجدتها ماريفولد رائعة ما جعلها تعود فتأكل البعض منه مع الزبدة رغم أنها كانت قد أنهت فطورها.

كان هذا ممتعاً للغاية. ألقت على فلين نظرة جانبية فبدا مشغولاً بتحميص الخبز وقد جلس القرفصاء أمام النار . إن جسمه رائع. لم تعلم من أين جاءتها هذه الفكرة فصدمتها، حتى كادت تختنق بفتات الخبز.

تساءلت بفتور عما جعلها تجلس هنا مسترخية لتتشارك الفطور مع رجل عرفته منذ يومين فقط. لكنها كانت تعرف الجواب... لأن هذا الرجل اسمه فلين مورو. وفكرت بارتباك يائس، إنه أشبه بجرافة بشرية... تجرف بفظاظة كل الصعوبات التي تعترض طريقها.

وغامرت بإلقاء نظرة أخرى عليه ثم تصلب جسمها عندما التقت أعينهما. فسألها بنعومة: «ماذا حدث؟».

ـ ماذا؟

ـ أراك عابسة.

سألته مراوغة: «أحقاً؟».

ثم بررت عبوسها بأنها تشعر بوخز في قدمها، قبل أن تقول بسرعة إنها بحاجة إلى حمام ساخن كما أنها تريد تغيير ملابسها.

ـ قومي بعملك، بينما أغسل أنا يديّ وأهتم بشجرة العيد.

ـ لا. إنها... لا بأس بها في الواقع.

لم تستطع أن تتصور فلين في الكوخ بينما هي مستلقية في حوض الحمام: «لا بد أن لديك الكثير من المشاغل في بيتك. ثم، ألم تقل إن ضيوفك سيصلون اليوم؟».

فقال بهدوء: «ما زال الوقت مبكراً».

ـ حسناً. أريد أن أبقى في حوض الحمام مدة طويلة. فذلك جيد لكاحلي.. ولن أشعر بالارتياح إذا جعلتك تنتظر.

حدّق إليها بارتياب. لكن الطبيب في داخله انتصر: «لا بأس».

ووقف بقفزة واحدة وحركة رشيقة، فطرفت بعينيها بينما اقترح عليها بنعومة: «لا أظنك ستوافقين إذا عرضت عليك أن أفرك لك ظهرك».

ـ بالطبع لا.

ـ يا للأسف!

وابتسمت ابتسامة مشرقة وقالت: «شكراً على شجرة العيد، وشكراً لبرتا على زينة الشجرة، هل لك أن تبلغها ذلك؟»

فأجابها وهو يسير نحو الباب: «يمكنك أن تبلغيها هذا بنفسك في ما بعد».

ـ لم أفهم...

ـ آه، ألم أخبرك؟

وفتح باب غرفة الجلوس وخرج منها إلى الردهة، وبعد لحظات سمعت صوته قبل أن يغلق الباب خلفه، وهو يقول بهدوء: «سآتي لآخذك الليلة عند الساعة السادسة، لحضور الحفلة في منزلي».

لم تصدق ماريفولد أن بإمكانها أن تنتقل من مكانها بهذه السرعة الخاطفة لكنها في لحظات معدودات، كنت تقف عند الباب وتفتحه ثم تنادي ذلك الشخص المتوجّه إلى السيارة المتوقفة عند آخر الحديقة: «فلين؟ فلين؟».

ـ هل صحت بي، يا سيدتي؟

إلتفت إليها فيما هو يرتدي سترته الجلدية، فقالت وهي تحاول أن تتجاهل مبلغ وسامته: «لا يمكنني الذهاب إلى الحفلة... أنت تعلم أنني لن أستطيع».

ـ لا أعلم شيئاً كهذا.

ـ أولاً، لا أستطيع أن أمشي.

ـ لكنك قلت إن كاحلك تحسّن قليلاً.

ـ لم يتحسّن بما يكفي لحضور حفلة.

ـ لست مضطرة للرقص إذا لم ترغبي بذلك.

هناك رقص إذن، ما يعني ملابس للرقص! فعادت تقول: «لا أستطيع أن أذهب. ليس لدي ما ألبسه. جئت إلى هنا لعدة أيام فقط إذا كنت تتذكر. على أيّ حال، أنا متلهفة لقضاء ليلة العيد في الكوخ أمام النار».

أمال رأسه جانباً: «أنت في الخامسة والعشرين، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها بينما اندفعت من الباب قطع الثلج لتتساقط على بساط الردهة.

قال لها: «إن فتاة جميلة في الخامسة والعشرين من عمرها لا تتلهف لقضاء ليلة العيد وحدها أمام النار كالعجائز».

شعرت بكلمة «جميلة» تذيب مقاومتها فكافحت الضعف بكل إرادتها وقالت بفتور: «أنا أفعل ذلك».

ـ ستأتين يا ماريغولد. أما بالنسبة إلى الملابس فلا تقلقي. فالضيوف الليلة يمكنهم أن يرتدوا أي شيء من بنطلون الجينز إلى أزياء كريستيان ديور.

وفي ما كان يحدثها عاد أدراجه إلى الكوخ، وما إن اقترب منها حتى مدّ يده إليها وفمه الصلب يبتسم لها.

وفجأة، لم تعد تستطيع التركيز على أي شيء، مع اقتراب فلين منها بحيث كادا يتلامسان.

فتحت فمها لتتكلم، لكن صوتها تلاشى قبل أن تتفوه بكلمة فقد أسكتها عناقه الرقيق هذه المرة. وما هي إلا لحظة حتى استيقظت في داخلها أحاسيس عنيفة لم تشعر بها قط مع دين.

للمرة الأولى في حياتها استمتعت بمعرفتها أنها امرأة وارتجفت شاعرة بالوهن. فهذا الرجل كائن غريب، رجل غريب أسمر بالغ القوة بإمكانه أن يجرفها إلى عالم آخر في أقل من طرفة عين. من جهة أخرى شعرت بأنها تعرفه منذ بداية العالم. وكأنه كان دوماً جزءاً منها. وزاد ارتجافها وأفزعتها قوة مشاعرها. وعلى الفور ابتعد عنها فلين: «أنت تشعرين بالبرد. اذهبي وخذي حمامك الساخن وسأراك هذا المساء».

بدا صوته آسفاً فشعرت بالانزعاج لأنه تمكن من التلفظ بجملة مفيدة بينما تشعر هي بمثل هذا الدمار الكلي.

لم تقل شيئاً وذلك لسبب بسيط، وهو أنها لم تستطع الكلام. لكن بعد رحيله مخترقاً الثلوج بسيارته الضخمة ومتوجهاً إلى منزله في الجانب الآخر للوادي، عنفت نفسها مئات المرات وهي تستلقي في الماء الساخن المليء برغوة الصابون.

لا بد أنها مجنونة تماماً لموافقتها على الذهاب إلى تلك الحفلة الليلة! لكنها لم توافق على ذلك في الواقع، هكذا أخذت تعزي نفسها من دون جدوى فهو سيأتي لاصطحابها في السادسة ولن يقبل جواب الرفض منها. لقد التزمت بحضور حفلة مع جمع من الأغراب يعرفون بعضهم بعضاً وقد تزينوا وارتدوا أجمل الثياب. بينما هي ستكون «كسندريلا»...

بقيت في الماء إلى أن أصبح بارداً تقريباً، فانكمشت وخرجت من الماء ثم نشفت جسدها بنشاط. وكان كاحلها قد استحال إلى ألوان مختلفة. لكنه، على الأقل، لم يعد يؤلمها كثيراً كما أن الورم أخذ يتلاشى تدريجياً. ستضطر لأن تلفه بالرباط الليلة طبعاً، لكنها بالكاد ستتمكن من حشر قدمها في الحذاء.

جففت شعرها ثم طلت جسدها بالكريم. كانت تتوقع أن تشعر بالتعاسة البالغة في هذا اليوم الخاص، أو على الأقل بالكآبة، لكن مع الخشية التي جعلت فمها جافاً، والحماسة التي جعلتها ترتجف، لم يعد هناك مكان لأي شعور آخر.

تفحصت محتويات خزانتها ثم تأوهت. فما أحضرته معها من الأمتعة مناسب تماماً لقضاء أسبوع أو نحوه في كوخ بعيد حيث لا ينشد المرء سوى الراحة والدفء، لكنه غير مناسب على الإطلاق لحفلة راقصة.

لحسن الحظ أنها أحضرت معها بنطلون جينز أسود غالي الثمن، وذلك تحسباً لبلل ملابسها الأخرى أثناء كارثة ما، وليس لأنها فكرت في أن تلبسه فعلاً. لكن الطريقة الوحيدة لتجعله يبدو مناسباً للحفلة هو أن ترتدي بلوزة

أنيقة ملونة. وهي لم تحضر معها واحدة بكل تأكيد.

وإذا بنظراتها تقع على ستارة قذرة من الدانتيل التبني اللون تغطي نافذة غرفة النوم. قد تكون قذرة، كما أخذت تفكر عندما ومضت في ذهنها فكرة نيّرة. لكن، إذا لم تكن مخطئة، فهي من أجل ما رأت عيناها من الدانتيل المحبوك يدوياً. هل تجرؤ على نزعها عن النافذة لتستعملها هذه الليلة؟ لقد ورثت عن أمها ميلها إلى أعمال الإبرة، ولهذا كانت تحمل معها دوماً أدوات الخياطة أينما ذهبت. يمكنها أن تخيط بلوزة منها، وستشتري للنافذة أجمل ستارة في العالم بعد العيد. من المؤكد أن إيما لن تلاحظ الأمر فقد سبق لها أن أخبرتها أنها سترسل لاحقاً من يفرغ الكوخ من كل أثاثه.

عرجت ماريغولد إلى النافذة ومدت يداً مترددة تلمس القماش القديم الجميل. وتحوّلت عيناها إلى ورق الجدران الحائل اللون فوق المدفأة حيث علقت صورة عروسين هي صورة جدّي إيما، على الأرجح. اقتربت منها أكثر وأخذت تحدّق بإمعان إلى فتاة شابة باسمة ترتدي ثوب زفاف ونقاباً قديمي الطراز، وبادلتها التحديق عينان سوداوان عميقتان في وجه جميل.

بدا وكأن العينين تشجعانها لتأخذ الستارة وتستعملها لتستمتع بوقتها وترفع رأسها عالياً فيعلم الجميع هناك أنها ليست أقل منهم. وكأن هاتين العينين تقولان لها إنها صانعة نفسها، وإنها ستكافح لكي تبقى حيث تريد... أليس هذا صحيحاً؟ أليس هذا صحيحاً؟

وأجابت ماريغولد بصوت مرتفع: «نعم، هذا صحيح».

أنزلت الستارة عن النافذة وغسلتها وسرعان ما جففتها أمام نار المدفأة، ثم فصلتها بحسب تصميم كانت قد رأته في مجلة قديمة.

وأخيراً أصبحت البلوزة جاهزة. وبدت لعيني ماريغولد الناقدتين بقيمة مليون دولار. لبستها للقياس النهائي ثم جلست أمام مرآة قديمة وقد اشرق وجهها بالنجاح. تبدو حقاً وكأنها من تصميم «كريستيان ديور» أو «آرماني» كما حدثت نفسها بحزم. أما الحذاء الأسود الخفيف الذي دسته في حقيبتها في آخر لحظة فكان مناسباً نوعاً ما.

عندما أنهت زينة شجرة العيد الصغيرة التي أحضرها فلين، كان الليل قد حلّ. وبدت الشجرة بديعة الجمال بفضل الزينة التي أرسلتها برتا.

تناولت عشاءها المكوّن من بيتزا مثقلة بالسعرات الحرارية وذلك عند الساعة الخامسة.

بعد الطعام، ركزت اهتمامها على زينتها وتسوية شعرها. وبعد محاولتين لرفع شعرها إلى أعلى توقفت عن النضال ومنحت خصلاته الحرية، فانسدل على كتفيها لامعاً ناعماً متأرجحاً. وناسب لونه لون بشرتها الحنطية وزرقة عينيها العميقة رغم أن ماريغولد نفسها كانت غافلة عن جماله. نظرت في المرآة بقلق، متمنية لو تستطيع رفعه على رأسها لتزيد في طولها إنشاً أو إنشين. لكنه كان من الجمال والنعومة الحريرية بحيث تمرّد على الدبابيس والقيود.

بعد أن وضعت كريماً على بشرتها الناعمة وظلاً أزرق قاتماً فوق جفنيها وبعض الكحل في عينيها، ولمسة من أحمر الشفاه الوردي اللون، أصبحت جاهزة تقريباً. عضت شفتها السفلى الممتلئة، ثم طقطقت بلسانها غيظاً عندما غطى أحمر الشفاه سنيها الأماميين.

بعد أن مسحت شفتيها، أعادت وضع أحمر الشفاه مرة أخرى وقلبها يخفق كأجنحة الطيور. بدت بلوزتها رائعة، لكن ماذا بإمكانها أن تفعل لتضيف خمسة أو ستة انشات إلى طولها؟

اهدئي يا فتاة... اهدئي... وضعت قرطين فضيين في أذنيها... القرطين الوحيدين اللذين أحضرتهما معها وهي تتساءل عما تراها تفعله.

وتنفست بعمق سائلة الله أن يمنحها السكينة. فكل ما تريده هو أن تتجاوز الساعات القليلة التالية بقدر ما يمكنها من الكرامة ورباطة الجأش.

لماذا دعاها فلين إلى الحفلة؟ هل يهتم بها حقاً أم أنها مجرد فتاة جديدة... أتراه يشعر بالأسف لأجلها، لا غير؟ لكن عناقه لها لم يكن نتيجة شفقة... لا، لم يكن كذلك... وراحت تطمئن نفسها بشكل محموم. ربما ليس لديها تجارب وحكمة فلين مورو، لكنها تعرف الفرق بين

العطف والشعور الأقوى بكثير... ألا وهو الرغبة.

الفتاة التي بادلتها النظر من أعماق المرآة الغائمة تحدّتها بعينيها البراقتين ووجنتيها المتوهجتين، فبدت على وجه ماريغولد لمحة من ذعر. عليها أن تتحكم في نفسها. رجل مثل فلين بإمكانه أن يحصل على أي امرأة يريدها بإشارة من إصبعه فقط، وهو لن يأرق الليل بسببها. كل ما عليها أن تفعله هو أن تظهر له بوضوح أنها لا تريد أن تراه في ما بعد بأي شكل... قطع حبل أفكارها الطرق الحازم على الباب الخارجي فاتسعت عيناها. إنه هنا! وألقت نظرة ذعر أخيرة على المرآة ثم أغمضت عينيها بشدة للحظة، قبل أن تفتحهما وتنتصب في وقفتها كأنها تستعد للذهاب إلى الحرب لا إلى حفلة ليلة عيد الميلاد.

كانت قد أراحت كاحلها طوال النهار، ولمست نتيجة ذلك عندما سارت للقاء فلين، رغم أنها جاهدت قليلاً لإدخال قدمها في الحذاء.

ـ مرحباً.

كان صوته كسولاً حين فتحت الباب بعكس عينيه تماماً.

احمر وجه ماريغولد قليلاً إزاء نظرة الاستحسان الواضحة في عينيه، فكل ثانية أمضتها في خياطة البلوزة تستحق منه ذلك: «مرحباً».

وسرها أن يبدو صوتها متزناً. فيما قال فلين برقة بالغة: «تبدين رائعة الجمال».

كان يرتدي قميصاً حريرياً رمادي اللون مع بنطلون أسود يبرزان طوله الفارع وجسمه القوي.

شعرت ماريغولد بارتياح بالغ لأنه لم يكن يرتدي سترة العشاء. فقد بدت بلوزتها مع بنطلونها الأسود متلائمين بشكل كامل مع ملابسه. ومع ذلك كانت ملابسه تنطق بالأناقة البالغة وباسم مصممها الشهير. وللحظة، خطرت لها فكرة هستيرية، ما الذي سيقوله لو عرف أنها تلبس ستارة قديمة؟ لكنها أزاحت هذه الفكرة من ذهنها وقالت: «شكراً».

ـ خذي هذه.

كان يضع يداً خلف ظهره، فمدّها إليها بعلبة صغيرة فيها أجمل زنبقتين وقعت عليهما عيناها. زنبقتان صغيرتان بلون القشدة! وقال: «كأن لدي حاسة سادسة... فهذا هو اللون الملائم تماماً لثيابك».

ـ آه، ما أجملهما.

أسرها جمال الزهرتين وازداد تورد وجهها للهدية غير المتوقعة: «ما كان لك أن تزعج نفسك حقاً».

ابتسم وأخرج الزهرتين من العلبة ثم انحنى إلى الأمام ليثبتهما في بلوزتها قائلاً بهدوء، وهو ينظر إليهما: «لقد جهز ويلف زهرة لكل ضيفة هذه الليلة، وذلك بفضل مستنبته الزجاجي».

كانت أصابعه دافئة على بشرتها وهو يثبت الزنبقتين مكانهما، وسرّها أنه يركز نظره عليهما في تلك اللحظة. فقد أثارت لمسته أغرب المشاعر في كيانها، كما أنّ فكرة حصول كل امرأة في الحفلة على الهدية نفسها آلمتها لحظة. وأضاف هو بصوت رقيق دافىء: «لكنني اخترت هاتين الزهرتين بنفسي. فرقّتهما وجمالهما يناسبان تماماً المشاعر العنيفة المحمومة، ما ذكرني بك».

ها هو يصفها مرة أخرى بأنها محمومة المشاعر... وانتزعت ماريغولد عينيها من عينيه. وأخذت تنظر إلى الزنبقتن اللتين يفوح منهما شذا مسكر، وقد بدا قلبهما القرمزي النابض بالحيوية متناقضاً بشكل رائع مع الجمال الخارجي الهادىء لتينك الزهرتين.

ـ هذا يبعث على الغرور خصوصاً بالنسبة لمن يعني اسمها «زهرة الماريغولد» مثلي. لم أتصور قط أن يشبهني أحد بزهرة الأوركيديا.

ـ آه، أؤكد لك أنني لا أبخس بجمال زهرة «الماريغولد».

كان لا يزال قريباً منها... بالغ القرب، ولم يعجبها تجاوب أعصابها لكنها وجدت تجاوب جسدها خارجاً عن السيطرة. وراحت عيناه تتأملان وجهها المتوهج وهو يقول: «إنها أزهار قادرة على الاحتمال مصممة على البقاء بقدر ما هي رائعة الجمال. إنها طبعاً تفضل الجوّ المشمس الهادىء

وعيش لا يشوبه المشاكل، لكن عندما تصل العواصف والكوارث... يمكنها أن تنمو في أي مكان».

أدركت ماريغولد تماماً أن فلين يتحدث عما هو أكثر من مجرد نباتات الحدائق. حدقت إليه وهي تتساءل كيف أن مديحه المستتر يمنحها هذه البهجة العميقة بينما هي لا تعرفه سوى منذ ثماني وأربعين ساعة أونحو ذلك. توقفت عن الشعور بمثل هذه الحماسة والامتنان حين هتف بها هاتف في أعماقها يحذرها بأنه من الأفضل أن تعتبر هذا الكلام مجرد ثرثرة. حتى لو تحدث فلين بهذه الحماسة عن زهرة «الماريغولد». لكنه لا يعني أكثر من مجرد غزل عابر... كما فكرت ساخرة.

قالت له بعدم اكتراث قدر إمكانها: «من المؤكد أنك تعرف الكثير عن الأزهار».

ـ لا، فقط زهرة الماريغولد.

كان ينظر إليها بإمعان وجد. وتملكها إحساس خفيف لم تستطع معرفة كنهه بعث رجفة في كيانها. وإذا بفمه الجاد الحازم يسترخي لتلتوي شفتاه بابتسامة: «هيا بنا. الجميع سيتساءلون إلى أين ذهبنا. هل لديك دثار أو معطف سميك؟».

كانت قد أحضرت معها فقط معطفها الصوفي والمعطف الواقي من المطر ذا القبعة، وأي منهما لا يتناسب مع هذه الحفلة بأي شكل. راحت تفكر في ذلك وهي تسرع عائدة إلى غرفة النوم. لكن لم يكن لديها أيّ خيار آخر سوى المعطف الصوفي لئلا تتجمد من البرد. حتى أنها لم تحضر معها سترة صوفية... فقط عدة كنزات سميكة.

التقطت كيس نقودها الأسود الذي كانت قد أفرغته من النقود منذ دقائق، ووضعت بدلاً منها مشطاً وأحمر الشفاه وألقت نظرة على صورتها في المرآة. البنطلون الأسود الضيق، والبلوزة التي تصل إلى خصرها والحذاء الأسود الخفيف... كل ذلك بدا لها حسناً للغاية.

نظرت إلى المعطف الصوفي الغالي عليها، والذي كانت تتباهى به ذات

يوم، ثم قررت أن تتجمد برداً.

راح فلين يستعمل الرفش الموضوع قرب الجدار لكي يزيل الثلج من الممرّ فيما أقفلت ماريغولد الباب ووضعت المفتاح في حقيبة يدها. وهكذا كان السير حتى السيارة خارج البوابة من دون مشاكل.

توقفت قبل الصعود إلى السيارة وهي تنظر إلى السماء التي كانت خالية من الغيوم. بدت النجوم أشبه بالماس المتناثر على غطاء من المخمل الأسود الممتد في السماء إلى ما لا نهاية. وعلى الأرض كان الجليد قد شكّل غطاءً من البلّور على وجه الثلوج أشبه بسجادة من الماس. كانت ليلة عيد الميلاد هذه رائعة... رائعة، كما أخذت ماريغولد تفكر بعجب. وهي ستمضيها مع هذا الرجل الغامض... فلين مورو...

كانت طوال النهار تكافح فكرة العلاقة الحميمة مع فلين لأنها تعلم في أعماقها أن رجلاً مثل فلين سيعتبر هذا بمثابة استراحة سارّة لا أكثر. ولأن غريزتها كانت تصرخ محذرة بأن الأمر سيشكل تهديداً لسلامتها النفسية وسعادتها وأنها إذا فشلت في تحصين نفسها، فستندم بقية حياتها.

***

٦ ـ رجل الأحلام

كانت الحفلة قد وصلت إلى منتصفها. واعترفت ماريغولد لنفسها بأنها لم تستمتع قط من قبل كما تستمتع الآن. كان أصدقاؤه مجموعة كبيرة وقد رحبوا بها وكأنهم عرفوها طوال حياتهم، كما أن فلين كان مضيفاً ساحراً.

بدا المنزل كالحلم، مزيناً بالشرائط المخملية التقليدية المختلفة الألوان. كانت شجرة العيد الضخمة في القاعة تتألق باللونين الأحمر والذهبي ولهب الشموع الصغيرة والحلي والزينة اللامعة التي تومض في الضوء.

لم تبق ماريغولد لحظة وحدها، رغم أنها رفضت دعوات الرقص بسبب كاحلها المصاب. وبشكل ما، انجذبت بشكل طبيعي إلى مجموعة من زملاء فلين في مثل سنها أو أكبر بقليل. ومع تقدم السهرة، وجدت صحبتهم رائعة. فقد كانوا مرحين صاخبين أحياناً، وأحياناً أخرى يغيظون بعضهم بعضاً بمداعبات بريئة تنبىء بأنهم يعرفون بعضهم البعض جيداً.

شعرت أن فلين قريب منها دوماً رغم أنه لم يبقَ معها طوال الوقت. إلا أنها راحت تذكر نفسها على الدوام، أن حرصه على إرضائها هو نوع من حسن الضيافة.

وعند منتصف الليل تصاعد الضحك مصحوباً بصياح ملؤه البهجة عندما ظهر بابا نويل حاملاً كيسه المليء بالهدايا. حصلت النساء على قطع من الحلي والرجال على أزرار ذهبية لأكمام القمصان. فتحت ماريغولد هديتها فإذا بها عبارة عن قرطين صغيرين ذهبيين يتدلى من كل منهما حجر

أحمر على شكل دمعة. والتقت عيناها بعيني فلين مصادفة، فحاولت أن تومىء له شاكرة من فوق الرؤوس. وكان يستند إلى جدار قريب منها، شابكاً ذراعيه على صدره، وقد بدا على وجهه شرود خفيف. مرّت لحظة قلق خيل إليها فيها أنه يتأملهم جميعاً من بعيد، وكأنه عالم مرغم على دراسة الحشرات تحت مجهره.

صُدمت ماريغولد لهذه الفكرة وأصابها ارتعاش وكأنما انسكب عليها دلو من الماء البارد. فخفضت بصرها بسرعة واعتذرت لتذهب إلى استراحة السيدات هرباً من كل هذه الجلبة.

وفي استراحة السيدات دخلت أحد المراحيض وأغلقت الباب، أرادت أن تنفرد بنفسها لتنظم أفكارها. كل تصرفات فلين الساحرة المضيافة وسهولة معشره، ليست أكثر من تمثيل... كما أخذت تحدّث نفسها. لم يدرك أي من الضيوف ما يفكر فيه أو يشعر به هذا الرجل الليلة. مظهر وجهه ذاك بدا مثيراً للانزعاج والاضطراب.

تنفست عدة مرات بعمق وهي تحاول السيطرة على خفقات قلبها المتسارعة. طوال الوقت، كان تشعر بهذا الميل إلى الابتعاد لدى فلين مع أن النساء احتشدن حوله الليلة، حتى الرجال كانوا يسعون إلى صحبته، لكنه كان طوال الوقت... كان غائباً عنهم.

أزعجها هذا الاكتشاف وجعلها تشعر بالغضب من نفسها فبقيت مكانها لبضع لحظات إلى أن تهدأ مشاعرها. عندما تعود إلى عالمها الحقيقي في لندن، كل هذا سيبدو لها مجرد حلم لا أهمية له.

وإذا بها تسمع صوت باب الاستراحة وهو ينفتح تلا ذلك أصوات نساء يتحدثن إلى بعضهن البعض: «ولكن من هي؟ لا بد أن هناك من يعرفها؟»

ـ يا عزيزتي، أنت تعرفين قدر ما أعرف. إنها حسب قول فلين، صديقة له وهذا كل شيء. يبدو أنها تقيم في ذلك الكوخ الصغير الذي مررنا به أثناء طريقنا إلى هنا.

كانت ماريغولد على وشك الخروج لكنها جمدت لدى سماعها هذه

الكلمات، بعد أن أدركت أنهن يتحدثن عنها.

ـ صديقة؟ حسناً، هناك صديقات وصديقات.

وضحكت المرأة الأخرى بطريقة أرسلت الاحمرار إلى وجنتي ماريغولد.

ـ جانيت، أنت فظيعة. أنت لا تعرفين شيئاً عما يجري. على أيّ حال، لا تنسي أن سيلاين دوماً في الخلفية.

وأضافت المرأة بانزان أكبر: «أياً كانت تلك الفتاة، ومهما كانت العلاقة التي تربطها بفلين، ستذهب كما ذهبت الأخريات».

ـ لكنه رجل الأحلام أليس كذلك؟ معرفة فلين تدمر إحساسك نحو أي رجل آخر.

ـ جانيت!

بدا لماريغولد أن المرأة الأخرى شعرت بالصدمة رغم أنها كانت تضحك وهي تقول: «أنت متزوجة منذ ستة أشهر فقط ما يعني أنك ما زلت على عرش السعادة، ولا تفكرين إلا في هنري! حسناً، لقد أنهيت إصلاح زينتي. هل أنت قادمة؟»

ـ نعم، لا بأس. دعيني أضع على شفتي مزيداً من اللون...

وساد صمت قصير قبل أن يُسمع صوت الباب يفتح ثم يُغلق خلف المرأتين.

ظلت ماريغولد جامدة تماماً مدة دقيقة كاملة. إذاً، ثمة امرأة في حياة فلين! سيلاين؟ هذا ما يجب أن يكون عليه اسمها، لأن اسماً عادياً ما كان ليتلاءم مع القائمة: سيلاين، تامارا... أتراهما ولدتا بأسماء كهذه أم أنهما اختارتاها بنفسيهما عندما اختارتا أن تصبحا «نساءً مدمّرات»؟

وقفت ببطء فيما بدأ الغضب يحل مكان خيبة الأمل. لم يكن لديه الحق في أن يعانقها فيما هو متورط مع امرأة أخرى. (أياً كانت الفتاة، ومهما كانت العلاقة التي تربطها بفلين، ستذهب كما ذهبت الأخريات) احترقت كلمات تلك المرأة في ذهنها.

من الواضح أن ما يربط فلين وسيلاين علاقة من ذلك النوع المنفتح، أو

لعل المرأة الأخرى تصبر على الحالة الراهنة لأنها تعلم أن علاقتهما مختلفة عن بقية العلاقات الطارئة، وأنها تملك قلبه؟

نظرت ماريغولد إلى يديها فإذا هما منقبضتان بشدة إلى حد ألمها. أرغمت نفسها على إراحة أصابعها، ثم أخذت نفساً عميقاً وفتحت باب المرحاض، وخرجت إلى الغرفة المفروشة بالسجاد حيث يوجد حوضان لغسل الأيدي فوقهما مرآة. وكان المكان خالياً.

غسلت يديها بماء بارد كما مسحت رقبتها من الخلف. ما من سبب يجعلها تغضب وتشعر بالخذلان، كما حدثت نفسها بتعاسة. فلين عانقها فقط... عانقها مرتين لا غير.

ثم عبست. لا، ليس عليها أن تبرر تصرفاته. لقد قال لها إنه أعزب وربما كان ذلك صحيحاً. لكن طالما أن لديه سيلاين، فمن الخطأ أن يحاول إغواء امرأة أخرى. هذا لا يعني أنه تمكن من إغوائها كما أكّدت لنفسها غاضبة، لكن هذا لا ينفي أيضاً أنه لم يكن صادقاً تماماً معها.. على الأقل هاتان المرأتان الثرثارتان لم تكونا واثقتين مما بينها وبين فلين. طبعاً، ليس بينها وبين فلين شيئاً في الأساس، ولن يكون، سواء أكان هناك سيلاين أم لم يكن.

وهكذا... ستعود إلى الحفلة وتتصرف بشكل عادي كما فعلت طوال السهرة. ستمزح وتضحك، وتكون ودودة. وعندما يصطحبها فلين إلى بيتها، ستشكره بأدب على هذه الحفلة الرائعة ثم تنسحب من حياته بكل رشاقة ولطف. وهكذا ينتهي الأمر وتحافظ على كرامتها ولباقتها، ولن تصرّح أبداً بمعرفتها بأمر سيلاين. إنه حرّ في أن يعيش حياته كما يريد، لكن ذلك ينافي الخلق السليم، بالنسبة إليها هي.

وقفت دقيقة أو اثنتين تحدق إلى صورتها في المرآة. ستوضح له بقوة أنها لم تفتتن به أو ترغب في أي علاقة معه... وهكذا على الأقل سيتذكرها بشكل مختلف عن الأخريات.

أعادت طلاء شفتيها بأحمر الشفاه، ومشطت شعرها فانسدل على

كتفيها، ثم نصبت قامتها.

حسناً يا فلين، كما أخذت تفكر بشيء من التسلية، أصبح عليك الآن أن تواجه حقيقة أنك لست نعمة من الله على النساء.

عندما عادت إلى غرفة الاستقبال، كان الراقصون يتمايلون في القاعة على أنغام موسيقى عيد الميلاد. أخذت تدور حول الراقصين بحذر، بينما جلبة الحديث والضحك في غرفة الجلوس تصم الآذان.

ـ لقد افتقدتك.

لا بد أن فلين كان ينتظرها. فما إن أطلت بأنفها من الباب حتى كان بجانبها. عنف نظراته أحرق جلدها بالرغم عنها.

ـ أشك في ذلك.

وأرغمت نفسها على إطلاق ضحكة مرحة، كانت فخوراً بها للغاية.

فغمغم برقة وقد ارتسمت على وجهه ابتسامته البطيئة: «إذن عليّ أن أقنعك بشكل ما. فلنجلس في زاوية هادئة».

آه، لا لن تفعل شيئاً كهذا. إذا كان يريد بعض التسلية.. لأن سيلاين على ما يبدو في مكان آخر، فقد اختار الفتاة الخطأ، كما حدثت ماريغولد نفسها متوترة. ومنحته ابتسامة متألقة: «لا أحلم في أن أبعدك عن ضيوفك».

قالت هذا بيشاشة وهي تبتعد عنه متوجهة إلى المجموعة التي كانت معها قبل قليل، وهي تشعر بالغليان في داخلها.

لا شك أن الجميع هنا يعلمون بقصة سيلاين كما يعلمون بقصة النساء الأخريات فكيف يجرؤ على التودد إليها أمامهم؟

توقعت أن يتبعها فلين ويلحّ عليها. لكن عندما لم تشعر بيد رجل حازمة على كتفها أو تسمع صوتاً رقيقاً في أذنيها، إفترضت أنه رأى أنّ الأمر لا يستحق الجهد...

كان الحديث بين أفراد المجموعة يدور حول الأمور الطبية فمعظمهم من الأطباء والممرضات. وراح جراح شاب يخبرهم عن التعقيدات التي واجهته

حين أجرى عملية الزائدة الدودية لشخص سيء الحظ... أما زوجته فمالت نحو ماريغولد ثم قالت: «دوماً يتحوّل الموضوع إلى العمل. فقد سمعت عن مئات العمليات الجراحية خلال حفلات العشاء وهذا ممل للغاية. آه، آسفة، لم أفكر قط... هل تعملين أنت أيضاً في هذه المهنة؟»

ـ لا.

وابتسمت ماريغولد للمرأة الشقراء ذات الوجه الوردي. هذان الزوجان لفتا انتباهها من قبل. كانت الزوجة حاملاً في شهرها السابع، تضحك باستمرار وتحتضن زوجها الطبيب الذي بدا مبتهجاً بزوجته الجميلة. ووجدت ماريغولد نفسها تحسدها من كل قلبها، وقد أدهشها ذلك. فهي لم تكن يوماً متلهفة إلى الاستقرار وإنجاب الأطفال حتى وهي مخطوبة لدين. لكن رؤية هذين الزوجين جعلتها تفكر كثيراً في هذا الأمر. لا بد أن الحمل من رجل تحبه أمر رائع كما أخذت تفكر في ذلك بألم مفاجيء حيّرها.

ـ هذا حسن. أنا مسرورة لأنك لست طبيبة أو ممرضة، فهكذا يمكننا التحدث عن الأزياء أو تسريحات الشعر... أو أي شيء آخر غير المستشفيات والعمليات!

وابتسمت المرأة لها، فبادلتها هي الابتسام مرغمة نفسها على التركيز على الحديث بدلاً من القيام بما يريدها كل عصب في جسمها أن تفعله؛ ألا وهو الالتفات لتبحث عن فلين.

عند الساعة الواحدة دخلت برتا وهي تحمل من العصير وفطائر اللحم وكعك العيد ما يكفي لإطعام جيش صغير. وبعد أن أكل الجميع بدأ الضيوف يغادرون، البعض إلى غرفه في المنزل، والبعض الآخر إلى فندق القرية الذي يقع على بعد عدة أميال. وهؤلاء الذين ذهبوا إلى الفندق سيعودون في الصباح التالي ليتناولوا غداء العيد والشاي، بحسب ما أخبرتها صديقتها الجديدة.

إنضم فلين إلى المجموعة بعد ماريغولد بربع ساعة تقريباً، لكنه لم

يخصها بأي اهتمام خاص، بل راح يهتم بالجميع ليدخل التسلية إلى قلوبهم بمزاحه اللطيف وسرعة بديهته اللاذعة أحياناً. فكان كل منهم يتلهف لجذب انتباهه إليه، كما لاحظت ماريغولد بسخرية.

ـ ما زال العرض سارياً لك لتمكثي في الجناح الملحق بالمنزل الليلة.

وكانت ماريغولد قد سارت إلى الطاولة الموضوعة في إحدى نواحي الغرفة لتضع كوبها وصحنها الفارغين أسوة بالآخرين. ولم تدرك أن فلين لحق بها إلا بعد أن سمعت صوته العميق خلفها.

ـ لا، شكراً.

وحاولت، بقدر ما أمكنها، أن تبقي صوتها مرحاً ودوداً. لكنه بدا مرهقاً حتى لأذنيها.

فقال بهدوء: «لا بأس، ماذا حدث يا ماريغولد؟»

ـ ماذا حدث؟

والتفتت تواجهه بوجه جامد: «آسفة، لا أفهم. أظنني أوضحت لك أمس أنني أنوي النوم في الكوخ».

إذا كان يظن أن بإمكانه أن يتسلى بها إلى حين عودة سيلاين، فليراجع أفكاره.

ـ لم أسألك أين ستنامين، بل سألتك عما حدث.

حدّقت إليه... إلى فمه الصارم وفكّه الحازم وباشمئزاز عميق من نفسها أدركت أنها تحسد سيلاين أكثر مما تظن.

وقالت كاذبة بثبات: «لم يحدث شيء».

ـ ماريغولد، الجراح الجيد، وأنا جراح جيد، يعرف متى يكون الناس متوترين قلقين. كما يكتشف بسهولة إذا كانوا يخفون أمراً ما. لقد حدث أمر ما الليلة وأنا أريد أن أعلم ما هو.

كانت غطرسته لا تطاق. وواجهت عينيه مباشرة ثم قالت بحزم «إذا كنت لا أريد البقاء في بيتك... فهذا لا يعني أن شيئاً ما قد حصل».

وجعل اليأس الكذبة تنساب بسهولة من بين شفتيها فأردفت: «أنا

متعبة، وأريد أن أعود إلى الكوخ. لكنني أمضيت وقتاً جميلاً، وشكراً لأنك دعوتني».

ضاقت عينا فلين وهما تتأملان وجهها المرفوع إليه. وسألها بنعومة: «وهل ستنضمين إلينا لتناول الغداء غداً؟»

ـ لا شكراً. لقد آلمني كاحلي الليلة، ولهذا قد ألزم السرير مرة أخرى.

أومأ فلين فيما غدا وجهه صلباً كحجر الصوان البارد: «سأعيدك إلى الكوخ».

ـ آه، هذا حسن.

لم تتوقع منه الاستسلام بهذه السرعة. لكن يبدو أنها انتصرت، هكذا حدثت نفسها بصمت وهي تودع الضيوف الآخرين، ثم تسير مع فلين إلى الباب الأمامي. ولكن لماذا تشعر وكأنها فشلت؟

بعد أن استقرا في السيارة الكبيرة أدركت أنها فشلت فعلاً.

لحق بهما إلى الخارج بعض الضيوف الذين سينزلون في الفندق، وما لبثت سياراتهم أن أخذت تهدر لتنطلق في تلك الليلة القارسة البرد. لكن فلين لم يحاول أن ينطلق بالسيارة بعد أن أدار المحرك.

التفتت ماريغولد إليه بعد ثوانٍ مرّت ببطء مؤلم للغاية. فقال بسرور: «لن نتزحزح قبل أن أعرف الحقيقة. الخزان مليء بالوقود، ويمكننا أن نجلس هنا طوال الليل بينما المحرك يدور لكي يبقينا دافئين. هل تشعرين بالبرد؟»

لم ينعتها بالكاذبة في الواقع، ولكنه مدّ يده إلى المقعد الخلفي ليسحب بطانية ويلفّها بها، فكان في ذلك جواب كاف. ولم تحتج هي على حركته هذه، فقد كانت أسنانها تصطك من البرد.

مرّت خمس دقائق قبل أن يتحدث أي منهما. وكان السكون يصم الآذان عندما قالت ماريغولد بتوتر، بعد أن شعرت بالدفء: «هذه سخافة، وأنت تعرف ذلك. سيتساءل الناس عما نفعله هنا».

تحرك في كرسيه ليواجهها، وقال بصوت هادىء: «عشت ثمانٍ وثلاثين

سنة من دون أن أهتم بما يظنه الناس، ولا أنوي أن أبدأ الآن».

لعل كلامه هذا هو الأصدق منذ تعارفهما، كما فكرت ماريغولد بمرارة. وردّت عليه بعنف ونفسها تحفّزها إلى قول المزيد: «إذن فأنت تعيش وحدك من دون اعتبار لأي إنسان آخر، أليس كذلك؟»

ـ لا أظنني قلت شيئاً كهذا.

ـ لكنها الحقيقة. حسناً، آسفة، لكنني أؤمن بالإخلاص لشريك واحد سواء أكانت العلاقة قصيرة أم دائمة.

ضاقت عيناه وسألها: «ما معنى هذا. هل تلمحين إلى أنني لا أؤمن بذلك؟»

ـ هل تقول إنك تؤمن بذلك؟

حتى تلك اللحظة كان يبدو دمثاً أنيساً. وفجأة، أصبح وجهه الوسيم بمثل برودة المشهد خارج السيارة، كما أصبحت عيناه فولاذيتين: «أووه... أيتها الآنسة، لدي انطباع بأن أخلاقي في موضع الإتهام هنا. وأنا لا أنوي الدفاع عن نفسي أمامك أو أمام أي شخص آخر».

ويا له من موضع ملائم! كما أخذت ماريغولد تفكر بحرارة.

ـ والآن، لا أدري ماذا يدور في رأسك الجميل هذا، لكن لمعلوماتك، أنا أؤمن بأن أساس كل علاقة هو الإخلاص بين الرجل والمرأة، سواء أكانت نية الطرفين دوام العلاقة أم لا. هل هذا يشكل جواباً عن سؤالك؟

آه، يا للنفاق! وكانت ماريغولد من الثورة بحيث نسيت نواياها وقراراتها، فسألته ببرودة: «وماذا عن سيلاين؟ هل توافقك رأيك؟ أم أن مفهومك عن الإخلاص يختلف عن تحديد القواميس له؟»

مضت لحظة ساد فيها صمت مطبق داخل السيارة وكأن كلماتها علقت في الجوّ وراح صداها يدور حولهما.

شعرت ماريغولد بأنها اقترفت غلطة فظيعة حتى قبل أن يرد عليها فلين.

شجعت نفسها لمواجهة الانفجار الذي سيأتي بكل تأكيد باعتبار النظرة

التي بدت في عينيه. تقلصت معدتها وجف فمها فجأة.

ـ سيلاين؟

وجاء صوته هادئاً غير معبّر حين أضاف: «من حدثك عن سيلاين؟ وماذا قيل؟»

هدوؤه البالغ بدا أكثر إرهاباً من أي ثورة أو هياج.

ـ لا أحد. المرأتان اللتان تحدثنا عنها في استراحة السيدات، لم تعلما بوجودي هناك.

وتلاشى صوتها. شعرت أنها تفسد الأمر، لكنه لم ينكر وجود امرأة تدعى سيلاين. تنفست بعمق ثم قالت بسرعة: «كنت في الاستراحة.. راحت امرأتان تتحدثان. قالتا...»

وسكتت فجأة لتتذكر الكلمات بالضبط.

ـ نعم؟

كانت كلمة واحدة لكنها كالثلج.

ـ قالتا إن سيلاين في الصورة الخلفية دوماً حتى عندما... تكون مع امرأة أخرى...

وتلعثمت بضيق... وتمنت لو أنها لم تفتح قط هذا الموضوع.

ـ وماذا بعد؟

ـ لا شيء في الواقع. بدا الأمر فقط وكأن هناك... حسناً كأن هناك الكثير من...

فقال يكمل بقسوة: «العلاقات؟»

ـ نعم، حسناً، هكذا بدا معنى الكلام.

(كل الأخريات)! ما الذي يمكن أن تعنيه هذه العبارة غير ذلك؟

ـ وهكذا افترضت أن لدي عشيقة، لكنني أقيم علاقات عابرة مع نسوة أخريات إذا أعجبنني. هل هذا صحيح؟ ولم تفكري حتى في أن تسأليني أنا عن ذلك؟ فضّلت أن تجمديني خارج البيت من البرد طوال الليل؟

وصرف بأسنانه وكأنه يريد أن يهزها بعنف.

حدّقت إليه ماريغولد. ما الذي فعلته؟ آه، ما الذي فعلته؟ وأنكرت: «أنا لم... لم أرغب بأن أجدك في الخارج...»

- إلى جهنم بإنكارك هذا.

واندفع بالسيارة بعنف وهو يتكلم ودار بها في طريق البيت نصف دائرة فكادت تصرخ من الهلع.

أنذرها توتر فكه بألّا تقول شيئاً أثناء قيادته بهذه السرعة البالغة نظراً لحالته العصبية. جلست محنية الكتفين بجانبه ورأسها يدور، فيما كل حواسها مركزة على الخروج من السيارة بسلام.

وعندما أوقف السيارة عند بوابة الحديقة، شعرت ماريغولد بارتياح بالغ لأنهما لم يسقطا في قناة للري أو يصطدما بشجرة. نزل فلين من السيارة، فاستطاعت أن تتمالك نفسها وأبعدت عنها البطانية قبل أن يفتح الباب ويمدّ يده إليها ليساعدها على النزول.

نظرت إلى وجهه الجامد: «شكراً».

جاء صوتها خافتاً جداً. ولم يقل فلين شيئاً، بل أمسك بذراعها فقط وهي تعرج على الممرّ الذي أصبح الآن أشبه بملاءة ثلجية.

بعد محاولتين فاشلتين تمكنت من إدخال المفتاح في القفل بيدها المرتجفة. وعندما انفتح الباب، استدار ثم شرع في السير مبتعداً. حدقت ماريغولد إليه وخفقات قلبها تتسارع، وأدركت أن عليها أن تقول شيئاً... أي شيء. لم تستطع أن تتركه يذهب هكذا، فنادته بصوت مرتجف: «فلين؟»

وقف، لكنه لم يلتفت: «نعم؟»

- إذا كنت قد أسأت فهم الأمر، فأنا آسفة. صدقني. لكنهما جعلتا الأمر يبدو... أنا آسفة.

فقال بعنف: «أنت صدقت ما أردت أن تصدقيه».

فتحت فمها لتنكر ذلك، لكن الكلمات وقفت على لسانها. إنه على صواب. وحدقت إلى الجسم الكبير أمامها، وتملكها الفزع. إنه على صواب تام. كانت بحاجة إلى إبعاد نفسها عن هذا الرجل فمنذ اللحظة التي قابلته

فيها، وهو يمثل نوعاً من التهديد لها.

وعندما بقيت صامتة، استدار ليواجهها، وقد ارتسمت الآن على فمه الصلب ابتسامة تنقصها البهجة وهو يرى الحقيقة في وجهها: «لا تقلقي. لن أزعجك مرة أخرى. يمكنك أن تحصلي على عيدك الهادىء».

قال هذا وقد بدا عليه الإنهاك، ثم استدار وتابع طريقه.

- فلين؟

ليس لديها الحق في أن تسأل، وربما بدا سؤالها قمة في الوقاحة بالنظر إلى ما قيل، لكنها لن تتمكن من النوم أبداً إذا لم تعرف: «من هي سيلاين؟»

مضت لحظة ظنت فيها أنه سيتجاهلها لكنه وقف مرة أخرى وقال بصوت جامد: «كانت سيلاين خطيبتي... ربما سمعت بها... سيلاين جينيت».

لقد سمعت بها ماريغولد فعلاً. فما من امرأة في العالم لم تسمع بعارضة الأزياء الفرنسية الرائعة الجمال.

- أمضينا معاً فترة منذ سنوات، لكننا افترقنا قبل موعد الزفاف بأسبوع. أثار الأمر اهتماماً بالغاً حينذاك. ونظراً لما سمعته أنت الليلة، يبدو أن ذلك الاهتمام ما زال موجوداً.

وكان في صوته البارد نبرة ساخرة: «لقد أصيبت الصحافة بخيبة أمل عميقة، كذلك أصدقاؤنا وأسرتانا، لأننا لم نشأ أن نتحدث عن الأمر أو نشوّه سمعة بعضنا البعض. ولكن، ما زلنا صديقين، هذا كل ما بيننا الآن».

لم تعرف ماريغولد ما عليها أن تقول. ولكن سرعان ما تبيّن لها أن لا أهمية لما ستقوله لأن فلين، كما يبدو، اعتبر الحديث منتهياً. تابع سيره واستقل سيارته من دون أي إيماءة منه.

بعد فترة طويلة من غياب أضواء سيارته عن النظر، كانت ماريغولد لا تزال واقفة على عتبة الباب. ولم تدخل إلى البيت إلا بعد أن انتبهت إلى أن البرد تسلل إلى عظامها.

سيلاين جينيت! جلست على السجادة قرب النار المتوهجة في غرفة الجلوس. سيلاين جينيت. إنها امرأة رائعة، بل مثيرة يبلغ طولها ستة أقدام ذات شعر رائع وعينين واسعتين تفيضان بالحيوية. لا عجب في أن تقول المرأتان إن ما من امرأة يمكنها أن تنافس سيلاين. لماذا تركته يا ترى؟ بسبب رجل آخر؟ أم من أجل وظيفتها؟

حدّقت ماريغولد إلى اللهب وقلبها يخفق. مهما كان السبب، فهو لم يجعل فلين يكرهها. لكن هل مازال يحبها؟ لقد قال إنهما الآن صديقان فقط، لكن هذا لا يعني أنه في قرارة نفسه لا يتمنى أكثر من ذلك.

مدّت يديها الباردتين إلى النار لكنها أدركت أن البرد الذي تشعر به يأتي من داخلها وليس من الخارج. ربما لم يكره فلين خطيبته السابقة. لكن من المؤكد أنه بات الآن يكرهها هي... كما أخذت تفكر بتعاسة. لماذا تصرفت بهذا الشكل السيء؟ ليس من عادتها التوصل إلى افتراضات خاطئة عن الناس بل في الواقع، إنها على النقيض من ذلك تماماً، متسامحة إلى حد الغباء. ففي كل مرة شكت فيها بوجود علاقة بين دين وتامارا، كانت تعود فتسامحه لعدم وجود أدلة كافية. ولو لم تكن كذلك لأدركت خيانته قبل وقت طويل... أما مع فلين...

الأمر مع فلين مختلف. لأمر ما، يبدو تأثير هذا الرجل عليها أكبر من تأثير أي رجل آخر عرفته.

عضت شفتها بقوة، كارهة شعورها هذا. لكنها لم تستطع التخلص من تلك الوحشة المظلمة التي اكتسحتها. أهذا هو عيد الميلاد الهادىء المسالم الذي تنشده؟ أرادت أن تمضي بعض الوقت وحدها لكي تستعيد طاقتها. ليت نظرها لم يقع قط على هذا الكوخ، أو على فلين، أو...

أجفلها القرع على بابها إلى حد خشيت معه أن تفقد توازنها وتقع في النار. وضعت يدها على قلبها الذي أخذ يخفق بعنف، ثم نهضت بسرعة. أخذت تعرج إلى الردهة ومن ثم إلى الباب الأمامي وقالت بصوت خافت حذر متوتر: «من هذا؟»

فقال صوت فلين ساخراً: «ومن غير بابا نويل؟»

فلين! فتحت الباب بارتباك ورأسها يدور. لم تتوقع أن تراه مرة أخرى وقد حيّرها ما شعرت به من ألم بسبب ذلك ولكنه هنا! أخذت تنذر نفسها بأن هذا لا يعني شيئاً... لا شيء على الإطلاق.

ظل فلين واقفاً في الباب ينظر إليها بثبات لحظة أو اثنتين، قبل أن يقول: «مرحباً، يا ماريغولد. هل يمكنني أن أدخل؟»

ـ آه، نعم، طبعاً.

كانت من الاضطراب بحيث لم تدرك على الإطلاق أنها تركته طويلاً بالباب.

عندما وقفا في غرفة الجلوس انتبهت لذلك فقالت بسرعة: «هل أحضر لك قهوة أم كاكاو؟»

ـ قهوة من فضلك.

ـ هذا حسن.

شعرت بخديها يحترقان. وودّت لو بإمكانها أن تبتعد عنه دقائق، لتتمالك نفسها بعيداً عن نظراته الفاحصة.

سألها بنعومة وكأن أحداث الساعة الماضية الحارقة لم تمر بهما قط: «هل أساعدك؟»

فقالت بشيء من الضعف: «لا. إجلس. لن أغيب أكثر من دقيقة».

وبعد قليل عادت تحمل الصينية مع بعض البسكويت. بدا لونها شاحباً رغم الحماسة الخفية والضيق المتوتر اللذين كانت تشعر بهما في أعماقها.

كان فلين يجلس على الأريكة أمام النار، عندما دخلت. بدا مرتاحاً للغاية وهو يضع ساقاً فوق الأخرى، وذراعاه ممدودتان خلف الوسائد. كانت جلسته تنضح بالرجولة.

ـ أريد فقط أن أقول إنني آسفة جداً لتوصلي إلى استنتاجات خاطئة بالنسبة إلي... إلى ما سمعته.

قالت هذا قبل أن تفقد توازنها وهي تضع الصينية على المنضدة الصغيرة

التي يبدو أن فلين وضعها أمام الأريكة قبل أن يجلس.

ـ أنت تصدقينني إذن؟

ـ طبعاً أصدقك.

بدا جذاباً للغاية مع أن وجهه ظل جامداً وقد بدا الغموض في عينيه. وتملكتها رعشة جارفة.

قال فلين باتزان: «أدركت عندما غادرت أنني ربما توقعت أكثر مما ينبغي. فأنت كنت بين مجموعة من الناس لا تعرفينهم، وسمعت بعض الكلام التافه من أناس جهلى. المسألة هي...»

سكت فجأة وقد توتر فكه قبل أن يعود فيقول: «حياتي الخاصة هي... خاصة. ولا أحب أن يتحدث عنها الآخرون. فهي لا تهم أحداً غيري».

أخذت ماريغولد تفكر وهي تحدق إلى وجهه الوسيم، بهذا الجوّ النائي المستقل الذي يحيط به؛ نوع العمل الذي يقوم به، حيث مهارته وخبرته يشكلان الفرق بين الحياة والموت، كل ذلك منحه جاذبية آسرة ومغناطيسية لا يمكن لامرأة أن تقاومها.

أرسلت هذه الفكرة رجفة في كيانها وهي تحاول أن تبرر سبب انجذابها إلى فلين. لم تشأ أن تنجذب إليه. إنها لا تريد أن تنجذب إلى أي رجل لسنوات وسنوات حتى تمحو ذكرى دين وتامارا من ذهنها.

أما فلين، برجولته الطاغية، فهو آخر رجل في العالم عليها أن تتورط بعلاقة معه، مهما كانت قصيرة.

ما زالت غير واثقة من أن فلين مهتم بها عاطفياً، أو يكن لها أي مشاعر. ولكن فقط فيما لو... اندفعت تقول قبل أن تجد وقتاً تزن فيه كلماتها، وتراجع ما أرادت أن توضحه: «فلين، قلت إنني صدّقت ما أردت أن أصدقه؟ حسناً، كنت على صواب إلى حدٍّ ما».

قالت هذا بلهجة محمومة وهي تقف أمامه، ويداها مشتبكتان بشدة: «في الواقع، بعد ما فعله دين أشعر أن ليس بمقدوري أن أواجه... أواجه

صداقة جديدة».

أنهت كلامها بضعف، واعية إلى أن كلماتها الأخيرة بدت سخيفة.

ـ أظن أننا ندرك أن ما في ذهني ليس صداقة فقط.

بدا صوته هادئاً لكنه اتصف بتلك الرقة والخفوت، ما جعل اللون يعود إلى وجنتيها. إنه يعرض عليها علاقة... علاقة قصيرة ربما. ومن وجهة نظره، لا بأس بهذا... هذا ما فهمته مما سمعته في الاستراحة. ولا بد أنه سار على هذا المنوال طويلاً منذ قصته مع سيلاين. ولكن هل يمكن لامرأة أن ترتاح بعد أن تعيش علاقة مع فلين مورو؟ أخذت ماريغولد تتساءل بصمت وهي تنظر إلى العينين الكئيبتين المركزتين على وجهها. ربما تدبرت النساء الأخريات أمورهن بعده بشكل ما، أما هي فلن تتمكن من ذلك.

ـ الأمر هو...

وسكتت وهي تتساءل كيف ستجعله يفهم: «الأمر هو...»

ـ وما هو ذلك الأمر؟

ـ قالت المرأتان إنك أقمت العديد من العلاقات بعد سيلاين، وكلها عابرة. هذا حسن جداً إذا كنت متفقاً مع صديقتك على ذلك. لكن لا أظنني أستطيع أن أقبل بهذا، وما زال الوقت باكراً بعد دين حتى للتفكير في... كما أنك رجل غني وناجح وتتعرف دوماً إلى أناس جدد. أنت لديك كل ما تريد، بينما أنا...

ـ أنت رائعة.

وقف فلين وشدّها إليه بذراعيه القويتين، فرفعت بصرها إلى ذلك الوجه الوسيم الخشن الذي بدت عليه تسلية خفيفة.

كانت ذراعاه حانيتين تشيعان الدفء في كيانها. شعرت بأنها ابتدأت تذوب كما حدث لها من قبل. ورغم أن سيطرته على حواسها كان مخيفاً، إلا أنه كان منعشاً أيضاً. لم تعتبر نفسها قط من قبل مخلوقة باردة، لكن قبل أن يبدأ فلين بمغازلتها، كان إحساسها بالعناق ساراً في أحسن الأحوال، ومزعجاً حين لا تكون في مزاج جيد.

أما عناقه . . . فأشبه بما تقرأ عنه في الروايات . . . ينسف الدماغ ويدير الرأس. واستسلمت ماريغولد بالرغم عنها لمشاعر الرضى التي استحالت حميمة.

ارتفعت يداها إلى شعره الأسود الكث وأخذت أصابعها تعبث به.

كانت مفتونة، مسحورة، متعطشة إلى البحث عن شيء لم تعرفه قط من قبل وأحست أنه في متناول يدها الآن. ما أرسل في جسمها موجات كهربائية جعلتها ترتجف.

رفع فلين رأسه أخيراً. كانت أنفاسه ثقيلة، لكن ذراعيه بقيتا حولها تشدّانها إليه.

فتحت ماريغولد عينيها الذاهلتين فوجدت عينيه الفضيتين مسمرتين على وجهها ما جعلها تعود من تخيّلاتها لتصطدم بالواقع بعنف. وأدرك هو ذلك على الفور، فتحوّل التعبير على وجهه الرجولي الصلب إلى أسف جاف: «ها أنت ذي تفعلينها مرة أخرى».

ـ ماذا؟

ـ التفكير بدلاً من الإحساس.

تراجعت قليلاً بين ذراعيه، ودفعته من صدره العريض القوي فأطلقها على الفور. قالت بقدر ما أمكنها من مرح: «ألا تعجبك الأفكار العقلانية؟ كنت أظنها ضرورية في عملك؟»

فقال بابتسامة بطيئة جذابة: «ثمة وقت ومكان لكل شيء».

تسارعت خفقات قلبها: «فلين . . .».

ـ أعرف، أعرف.

قاطعها برقة، رافعاً ذقنها لينظر في عينيها البنفسجيتين: «أنت لست مستعدة لإقامة علاقة جديدة بعد. هذا مبكر جداً. طريقتا عيشنا مختلفتان تماماً عن بعضهما البعض. أصحيح هذا؟».

فأومأت وهي ترتعش: «صحيح»

في ثلاثة أيام فقط قلب هذا الرجل حياتها رأساً على عقب. كيف فعل

ذلك؟

قال فلين بلهجة عفوية لم تستوعبها في البداية: «ماريغولد، نحن الإثنان نعلم أنني لو لم أتوقف منذ دقيقة لكنا الآن منجرفين وراء عواطفنا تماماً».

شعرت بالغضب لأنه أخبرها بالحقيقة، وقالت متحدية: «ما دمت تعتقد هذا، لماذا توقفت إذن؟»

ـ لأن الوقت والمكان ليسا مناسبين. وعلى عكس ما تظنينه، أنا أعتبر ذلك أمراً هاماً. ثمة تجاذب بيننا لا يمكنك إنكاره، أحسسنا به منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها. وليس هناك سوى نهاية واحدة لهذا التجاذب ولكن عليك أن تقبليني في حياتك قبل أن تقوم بيننا أي علاقة. يمكنني أن أتفهم ذلك. وإلا، فستشعرين بالألم نظراً لشخصيتك هذه.

حدقت إليه متأملة في حديثه. من الواضح أنه يفكر في علاقة بينهما، والمسألة ليست سوى مسألة وقت. قالت بضعف: «لا أصدق أنك تقول شيئاً كهذا».

ـ لماذا؟

وسار إلى الصينية يسكب كوبي قهوة لهما قبل أن يضيف: «سكر وقشدة؟»

سكر وقشدة؟ من هو المجنون بينهما؟ لقد أعلن لتوه وبهدوء أنه ينوي إقامة علاقة معها في وقت ما من المستقبل القريب من دون أيّ اعتبار لما قالته.

قالت بحزم، متجاهلة صينية القهوة: «فلين، لا يمكنك النظر بهذه الفظاظة إلى كل ما قلته».

فقال برقة: «لا أذكر أنني فعلت ذلك. لقد أخذت بعين الاعتبار اعتراضاتك كلها، لكن لديّ ميلاً إلى قول الحقيقة يا ماريغولد، وأنت تعترضين على ذلك دوماً».

نظرت إليه ساخطة. لديه جواب عن كل شيء. فتحت فمها تريد أن تجادله، ثم عادت فأطبقته فجأة. إنها لم تنتصر قط في حرب الكلام مع فلين.

ومن ناحية أخرى، هي غير مضطرة لذلك، في الحقيقة. فقد قال إنه سينتظر إلى أن تتقبله في حياتها ولن يضغط عليها. . . . ومع أن هذا الأمر بسيط تماماً في الواقع، إلّا أنّ عليها أن تكون حذرة في الأيام القليلة المقبلة، أثناء وجودها هنا في المنطقة. وعندما ترحل سينتهي كل شيء، لا اتصال ولا لقاء بينهما ولا أي شيء آخر. ستكون قاسية وعليها أن تكون كذلك، لأن فلين على صواب في أمر واحد على الأقل؛ هذا التجاذب بينهما بدائي وبالغ القوة والسيطرة.

قالت بعذوبة: «قشدة وملعقتا سكر من فضلك».

ـ ماذا؟

وأحست بالشمانة وهو يطرف بعينيه قبل أن يقول متذكراً: «آه، القهوة. نعم».

والقهوة هي كل ما سيحصل عليه فلين سواء هذه الليلة أو في المستقبل، كما حدثت ماريغولد نفسها بحزم. إلّا أن صوتاً خافتاً في داخلها ذكّرها بلؤم: هذا إن تمكنت من السيطرة على مشاعرك حين يعانقك مرة أخرى.

* * *

٧ ـ على أجنحة الشوق

استيقظت ماريغولد صباح يوم عيد الميلاد، فتذكرت أنها وعدت بأن تتناول وجبة الغداء وتشرب الشاي مع فلين وأصدقائه. انقلبت على بطنها جاذبة الوسادة فوق رأسها وهي تتأوه بجنون. إنها مجنونة. . . مجنونة تماماً!

أمضى فلين بعض الوقت في الكوخ الليلة الماضية، وكان تصرفه مثالياً؛ فشرب كوبين من القهوة، وأكل معظم البسكويت، وتبادل معها أحاديث مسلية ممتعة. وكأنما أغراها بذلك للموافقة على الحضور إلى منزله في اليوم التالي. ثم خرج تاركاً ماريغولد مع فكرة غير مرغوب فيها إنما على شيء من الإثارة وهي أن فلين رجل يحصل دوماً على ما يريد.

بعد أن أمضت فترة طويلة في مياه المغطس الدافئة في الحمام، تفحصت ماريغولد محتويات خزانة ثيابها المحدودة. وقررت أن ترتدي بنطلون الجينز الأسود مرة أخرى، مع كنزة طويلة سميكة بلون القشدة ذات قبة عالية عريضة، تصلح تماماً لهذا النهار. شعرت بنشوة وبهجة تسريان في كيانها. وأمضت الساعتين الأخيرتين وهي تنبّه نفسها لئلا تتخلى عن الحذر لحظة واحدة.

ففلين من النوع المسيطر. سيجذبها إلى مداره ويبقيها هناك إلى أن يتلاشى التجاذب بينهما. وبعد ذلك؟ بعد ذلك سيتركها هائمة وسط الفراغ. كان حماقة منها أن توافق على الذهاب إلى منزله اليوم، لكنها ستكون المرة الأخيرة التي توافقه فيها على ما يريد. كما أن المنزل سيكون مليئاً بالضيوف، ولن يكونا وحدهما.

وصل فلين ليصطحبها عند الحادية عشرة تماماً، وكانت هي جاهزة بانتظاره، مصممة على ألا تمنحه عذراً لينفرد بها في الكوخ.

أغلقت باب الكوخ بسرعة ما إن سمعت صوت السيارة الضخمة تقف أمام بوابة الحديقة وأسرعت تجتاز الممر المغطى بالثلج بشكل طبيعي تقريباً من دون أن تشعر بألم في كاحلها المصاب.

خرج فلين من السيارة، ودار ليفتح لها الباب فإذا بها أمام هيئة رجولية رائعة بطول يبلغ ستة أقدام وببنطلون جينز وسترة جلدية أسودين: «مرحباً».

بدا صوته رقيقاً والضحكة تعلو وجهه وهو يساعدها على الصعود ثم يغلق الباب خلفها. وطيلة الطريق إلى المنزل راحت ماريغولد تجاهد للسيطرة على خفقات قلبها المتسارعة. لكن مودّته وتصرفاته الدافئة بعثت الراحة في نفسها بشكل كافٍ سمح لها بالاستمتاع بيوم رائع.

كانت برتا قد تمكنت بمساعدة ويلف من تحضير غداء العيد الفاخر كما حضرت حلوى شهية خاصة بعيد الميلاد ما جعل الأيدي ترتفع بالتصفيق حول المائدة.

بعد ذلك، أخذ الجميع يمرح ويلهو طيلة بعد الظهر. ولاحظت ماريغولد أن فلين كان مشاركاً فعّالاً وليس متفرجاً. وبعد مقصف فاخر رافق الشاي، إجتمع الضيوف في غرفة الإستقبال حيث أخذ فلين يعزف على البيانو بينما راح الجميع يغنون أغاني عيد الميلاد. أخيراً انتهت الحفلة، وابتدأ الضيوف يغادرون إلى منازلهم.

قالت ماريغولد بتحفظ، محاولة أن تجعل الأمور أقل حميمية بينهما: «لم أكن أعلم أنك تجيد العزف على البيانو».

كان فلين قد تأبط ذراعها، وبذلك ألزمها بالوقوف إلى جانبه على درجات المدخل، وهو يودع ضيوفه عند رحيلهم. إن وقوفها قرب تسعة وتسعين رجلاً لا يشكل أي مشكلة بالنسبة إليها على الإطلاق. لكن فلين هو الرجل المئة الذي يفقدها السيطرة على حواسها وخفقات قلبها المتسارعة

تشهد بذلك.

ـ هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها عني يا ماريغولد.

أجابها باتزان، ولكن بخفوت في الصوت منحه سحراً له فعل الديناميت: «أشياء يسرني جداً أن أقوم بها ما إن تسنح لي الفرصة».

وتأمل وجهها لحظة قبل أن يعود بنظره إلى الطريق: «أنا أستمتع بالعزف عل البيانو، كما بإمكاني أن أحدث ضجة معقولة على المزمار. وأفضل كرة القدم الأميركية على كرة القدم الإنكليزية، وأكره الغولف وأحب الغوص. ولكن هناك طبعاً نشاطات... أخرى تمنحني من البهجة أكثر من تلك كلها مجتمعة».

لم تسأله عما تكون هذه الأخيرة. وأبقت نظراتها مسمّرة على السيارة التي تقف قبالتهما وكان راكبها يلوّح لهما بحماسة بينما هي تقول: «أنا تعلمت الغوص وحصلت على شهادة في هذا المجال».

حاولت إقناع دين بأن يتعلم الغوص معها، ليتمكنا من الغوص معاً في البحر الكاريبي أثناء شهر العسل لكنه لم يذهب معها إلى التمارين. واحتج بوجود مشكلة في أذنه الداخلية.

ـ إذن فأنت فتاة مائية؟

كان شعره الفاحم يومض في ضوء القمر، وأدار عينيه الفضيتين نحوها: «هذا لا يدهشني، فأنت شجاعة بقدر ما أنت جميلة».

فقالت بقدر ما يمكنها من مرح: «التملق يجعلك تكسب الجولة».

فرد بجفاء بالغ: «أتمنى ذلك، لكن هذا ليس تملقاً. لقد قلت لك من قبل، أنا أخبرك الحقيقة فقط».

ـ هذا يجعلك رجلاً بالمليون.

قالت هذا بشيء من المرارة لم تستطع أن تخفيها.

فابتسم بكسل: «هكذا إذاً؟ أنا مسرور لأنك أدركت ذلك بهذه السرعة».

ثم تصلب جسمه وهو ينظر إلى الطريق قبل أن يقول بصوت خشن:

«ما هذا بحق جهنم؟ هذا السائق يقود السيارة كالمهووس ما جعل تارل ينحرف بسيارته حتى أوشك أن يخرج عن الطريق. لا أعرف تلك السيارة».

نظرت ماريغولد حيث ينظر ثم ابتلعت ريقها بصعوبة. لقد عرفت السيارة والسائق، فالسائق ليس رجلاً بل امرأة.

كانت إيما تقود سيارة رياضية أنيقة هي هدية السنة الماضية من أبيها. وقد توقفت بشكل مفاجىء أمام المنزل ما جعل الحصى تتناثر من تحت العجلات. نادتها وهي تخرج من السيارة: «غولدي، يا حبيبتي! كانت رحلة أشبه بالكابوس».

تمتمت ماريغولد بيأس: «إنها إيما. لم أتوقع وصولها قبل يومين».

ـ يا لك من محظوظة!

خرجت كلماته لاذعة خشنة عدائية، تركت ظلها على ملامحه الصلبة المليئة بالرجولة وذلك بعد أن وقعت عيناه على البنطلون الجلدي الضيق، والحذاء الذي يبلغ علوّ كعبه ثلاث إنشات، والشعر الأشقر المصبوغ، والوجه الجميل المزيّن بعناية.

ـ كنت أنتظر أمام الكوخ فتوقفت إحدى السيارات، وأخبرني من بداخلها أنك هنا.

تابعت إيما كلامها وهي تتجه نحوهما. كانت تتكلم مع ماريغولد لكن عينيها الخضراوين الكبيرتين تركزتا على فلين: «يا عزيزتي، كان عليّ أن أبتعد عن لندن. لقد تخاصمنا أنا وأوليفر، ولا أريد أن أراه بعد الآن طوال حياتي».

أنهت كلامها بشكل مسرحي قبل أن تضيف، وكأنها أدركت فجأة أنها بدت قليلة التهذيب: «آه، أنا إيما جونز، بالمناسبة».

ومدّت يدها إلى فلين.

لم يمدّ إليها يده، وإنما أومأ فقط وهو يقول: «يبدو أنك حفيدة ماغي».

توقفت إيما فجأة. لقد اعتادت أن ينحني الرجال أمام جسمها المتناسق

وأهدابها الخفاقة، لا أن يحملقوا فيها بوجه متجهم كالرعد.

على أيّ حال، إيما ليست مخلوقة ضعيفة بل هي أقسى مما تبدو عليه.

قالت بصوت واضح فصيح: «ماذا يعني ذلك بالضبط؟».

ـ كنت صديقاً لجدتك وقد اهتممت بها. أظن أنّ هذا يفصح عن كل شيء.

ـ حقاً.

ورفعت إيما ذقنها الصغيرة وعينيها الواسعتين. من الواضح أنها عرفت بالضبط ما يعنيه عندما قالت: «أخبرني أبي أن رجلاً فظاً قليل التهذيب يعيش في آخر الغابة».

ـ والدك على صواب، وهذا الرجل الفظ، القليل التهذيب بالذات يطلب منك الآن، وبكل أدب، أن تنصرفي من منزله.

كانت ماريغولد أثناء هذا الحديث قد أفلتت يدها من ذراع فلين، فقالت بسرعة: «سأحضر حقيبة يدي، يمكنك أن تنتظريني في سيارتك يا إيما».

ـ بكل تأكيد.

وعندما استدارت إيما وذهبت تتهادى إلى سيارتها، ركضت ماريغولد إلى داخل المنزل حيث اختطفت حقيبتها التي كانت قد تركتها في غرفة الإستقبال، ثم عادت إلى الردهة فوجدت فلين في انتظارها.

ـ ليس عليك أن تذهبي.

فعضت شفتها: «بل عليّ ذلك وأنت تعرف هذا».

فقال بهدوء: «هل يمكنني أن أراك غداً؟».

ـ لا أظن أن هذه فكرة حسنة.

فقال برقة بالغة: «لا أوافقك على ذلك. فهي فكرة ممتازة».

ـ أرجوك يا فلين.

ـ ممَّ أنت خائفة يا ماريغولد. مني أنا؟ أم أن ثمة شيء آخر؟ أمر في ماضيك يتعلق بخطيبك السابق؟ هل عاملك بشكل سيء إلى هذا الحد؟

سألته ساخرة: «أتعني أكثر من شعوري بالسذاجة لأنني كنت غافلة عن خيانته بشكل جعل كل من حولنا يعلم ما عداي؟».

وسكتت فجأة وقد فوجئت بنبرة المرارة في صوتها. حتى هذه اللحظة لم تكن قد أدركت مدى عمق الجرح في نفسها. وشعرت للحظة بالاستياء لاعترافها بسذاجتها أمام فلين. لم تشأ أن ترى نفسها ضحية أو امرأة محطمة، كما فكرت بعنف. عليها أن تنتصر على هذا. قالت وهي تشير إلى إيما التي تنتظرها في السيارة عابسة: «عليّ أن أذهب. إيما تنتظرني».

ـ تباً لإيما!

ـ عليّ أن أذهب.

وهرعت إلى السيارة بسرعة أرهقت كاحلها المصاب. ما إن أصبحت في السيارة حتى انطلقت إيما بسرعة أشارت بوضوح إلى مبلغ الجرح القاتل الذي أصاب مشاعرها، رغم مواجهتها الوضع بهدوء مدهش: «يا له من رجل فظيع! كيف يجرؤ على أن يكلمني بهذا الشكل؟ ثم، ماذا كنت تفعلين في بيته على أي حال؟».

لا بأس، قد تكون إيما مستاءة لكن لا شيء يجعلها تعتذر عن وجودها في بيت فلين. فأجابتها متحدية: «ماذا قلت؟ لم أكن أعلم أن هذا الأمر محظور».

ألقت إيما نظرة سريعة على ماريغولد وقالت بصوت أقل حدة: «ذلك غير محظور بالطبع. كل ما في الأمر أنني لم أكن أظنك تعرفينه».

ـ لم أكن أعرفه، وقد حدث الأمر بهذا الشكل...

وقصّت عليها الظروف التي جعلتها تتعرف إلى فلين، متجنبة إشارته إليها وإلى أسرتها وانتهت إلى قولها: «أظنه كان يفكر كثيراً بجدتك، يا إيما».

هزت إيما كتفيها من دون اكتراث: «أنا أكاد لا أعرفها. لكنني أعرف أنها قادت والديّ إلى الجنون برفضها الانتقال إلى ملجأ العجزة، وأن لديها مجموعة من الحيوانات يعشش فيها القرّاد. كان أبي يزورها في العادة وحده».

فسألتها ماريغولد بهدوء: «هل كان يزورها كثيراً؟».

ـ من وقت إلى آخر. لديها أصدقاء كثيرون في هذه الأنحاء.

ـ لكن ذلك لا يعوّض عن الأقارب أليس كذلك؟

ـ لا تبدأي.

وانزلقت سيارة إيما ثم توقفت بجانب ميرتيل، سيارة ماريغولد، فشعرت وكأن سيارتها الصغيرة أجفلت عندما كادت سيارة إيما الرياضية تصطدم بها.

ـ أتيحت لجدتي فرصة دخول الملجأ حيث ستجد من يعتني بها، وحيث يتاح لوالديّ أن يزوراها بسهولة. لكنها أصرت على الإقامة في الكوخ. وأبي لديه وظيفة هامة وليس بمقدوره أن يضيّع وقته في الركض في الأنحاء. كما أنه هو وأمي يستضيفان الكثير من الناس دوماً... إنه مضطر لذلك من أجل تعزيز مركزه في العمل. على أيّ حال لم تكن جدتي وأبي على وفاق لأن أبي لم يستطع أن يحضر جنازة جدي، قالت جدتي إنها لن تسامحه أبداً.

ـ ولماذا لم يستطع أبوك أن يحضر الجنازة؟

وحدقت ماريغولد إلى وجه إيما الساخط، وهي تتساءل كيف لم تدرك من قبل أنها لا تحب هذه الفتاة على الإطلاق.

فأجابت إيما من دون اكتراث: «إنه ضغط العمل. عليك أن تضحي إذا كنت تريدين أن تصلي إلى القمة».

ـ نعم، أظن ذلك.

فتحت ماريغولد باب السيارة وهي تتابع: «أنا راحلة عند الصباح يا إيما. عليّ أن أقوم ببعض الأعمال في بيتي. هل ما زلت تنوين بيع الكوخ؟».

ـ قد أبيعه. لماذا؟

ونظرت إيما إليها وهما تسيران إلى باب الكوخ، فيما ماريغولد تناولها المفتاح.

ـ أودّ أن أعرف كم تريدين ثمنه، وهذا كل شيء.

لأمر ما، لم تستطع أن تحتمل فكرة أن تكون إيما مالكة ذلك البيت الذي أحبته تلك العروس الصغيرة الحلوة في الصورة، أو أن تبيعه إلى شخص لا يقدر الدم والعرق والدموع التي بذلتها فيه ماغي العجوز أثناء السنوات الماضية. وتابعت تقول: «أعني مع الأثاث والصور وكل شيء».

ـ كل تلك القمامة القديمة؟

نظرت إليها إيما وكأنها مجنونة، وربما كانت كذلك فعلاً، كما اعترفت ماريغولد لنفسها ساخرة وتابعت إيما: «ولماذا تهتمين بكل ذلك؟».

ـ إنه يلائم الكوخ فقط لا غير!

* * *

أمضت ماريغولد الليلة على الأريكة في غرفة الجلوس، بالرغم من إلحاح إيما عليها بأن تشاركها غرفة النوم.

وعند التاسعة من صباح اليوم التالي كانت في طريقها إلى المدينة. لو أمضت وقتاً أطول في الكوخ لتشاجرت مع إيما من دون شك. وهي لا تريد ذلك. ليس فقط لأن هذا سيجعل عملهما معاً في الشركة صعباً، بل لشعورها بأن ماغي العجوز تعتمد عليها في أن تشتري الكوخ وتجعله بيتاً حقيقياً مرة أخرى.

وعندما اقتربت من لندن، وجدت أنها لا تستطيع منع فلين من غزو أفكارها. وهذا ما حصل طوال الليل أيضاً. وكأن تفكيرها فيه يزداد مع ازدياد ابتعادها عنه. كان قد اتهمها بأنها تخافه، فهل هذا صحيح؟ تساءلت عن ذلك وكرهت الجواب الذي جاءها ليثبت كلامه. لقد هربت هذا الصباح، لأول مرة في حياتها تهرب من أمر أو من شخص ما، وبتعبير أدق، من رجل. كانت، في الواقع، ستغادر الكوخ بعد انتهاء حديثها مع إيما وقد ضايقها كثيراً أنها لم تتمكن من البقاء والادعاء أن كل شيء على ما يرام. فكرت بأن تمرّ بفلين في طريقها وتخبره بأنها راحلة. فبعد كل ما فعله من أجلها سيكون ذلك من باب التهذيب على الأقل.

ولكن... كانت تعلم في أعماقها، وإن لم تعترف بذلك الآن، بأنها متلهفة إلى رؤيته بقدر ما تتوق لعدم رؤيته على الإطلاق... وصرفت بأسنانها، فما هذا التناقض؟

هل تفكر في شراء كوخ إيما لكي تبقى بجوار فلين؟ قلبت الفكرة في رأسها بنزاهة. لا، ليس هذا هو السبب. وأراحها ذلك. لكن وجود منزل فلين عبر الوادي يجعل هذه الفكرة غير مناسبة ما دامت مصممة على قطع كل صلة به بعد الآن.

آه، هذا جنون... غباء! لماذا تمزق نفسها بالتفكير برجل لم تكن تعرفه منذ أسبوع؟ ربما لن يفكر فيها فلين مرة أخرى بعد أن رحلت... هذا إذا أزعج نفسه بالسؤال عنها.

إذا نجحت في شراء الكوخ... فسيكون أمراً عظيماً. وإلا... فليكن! في الحالين ستستمر في تنفيذ خططها للمستقبل وتعمل حرة. لقد انتهت مرحلة من حياتها وابتدأت أخرى لتوّها.

لن تفكر في فلين مورو بعد الآن، لعلها مجرد فترة استراحة أو لعله سحر عيد الميلاد... لكن العيد انتهى كما انتهى عبثها مع فلين. وأمنت بحزم لهذه الفكرة.

هذا يكفي! لقد اتخذت قرار الاستقلال في العمل في المستقبل القريب. وحتماً، حتماً، لا مكان لرجل في حياتها.

* * *

أمضت ماريغولد اليومين التاليين من إجازتها في تنظيف شقتها الصغيرة بشكل كامل، وقامت بعدة أعمال منزلية كانت تؤجلها منذ وقت طويل. لم تسمح لنفسها بأن تفكر بفلين فأمضت الوقت تستمع إلى الراديو أو التلفزيون، كما كانت تطرد بقسوة أيّ فكرة طارئة تقود عقلها إليه.

عادت إلى العمل صباح الاربعاء بعد أن طبعت استقالتها ووضعتها في حقيبتها. بدت باتريشيا وجيف آسفين لتلقّي استقالتها، لكنهما وعداها

بالتعامل معها على أساس العمل الحر. وافقت على البقاء في العمل حتى آخر شهر آذار، فشعر الجميع بالرضى. كانت إيما في إجازة حتى رأس السنة الجديدة، ولم تأسف ماريغولد لذلك. لكنها فكرت بأن تبقى على علاقتها بها نظراً لرغبتها في شراء الكوخ.

مر اليوم الأول من العمل بهدوء، ولأول مرة، تمكنت ماريغولد من مغادرة المكتب في الوقت المحدّد والعودة إلى بيتها قبل الساعة السادسة. وعندما دخلت الشقة كان جرس الهاتف يرن. وإذا بأمها تتصل بها وتصر عليها بأن تنضم إلى بقية أفراد الأسرة والأصدقاء لقضاء ليلة رأس السنة في منزل والديها.

وعدتها ماريغولد بالتفكير في الأمر، فلم يسعد هذا الجواب أمها ساندرا فلاور البتة. بعد ذلك بثلث ساعة استطاعت ماريغولد أن تقفل السماعة، بعد أن ملأت أمها أذنيها بالأخبار، بدءاً من ساق الخادمة المكسورة إلى أحوال الدولة.

لم تكد ماريغولد تسير خطوة واحدة نحو المطبخ لتحضر فنجان قهوة حتى راح جرس الباب الأمامي يرن ثم تبعته طرقات عالية متواصلة.

ـ مهلاً، مهلاً، أنا قادمة.

أخذت ماريغولد تتذمر وهي تسير إلى الباب، فيما راحت تدفع شعرها عن وجهها بيد واهنة. العمل المرهق في شقتها أثناء اليومين الماضيين جعل الألم في كاحلها يزداد، وهذا ما أرّقها طوال الليل كما عاودها الألم بعد عملها هذا النهار.

ـ مرحباً، يا ماريغولد فلاور.

إنه فلين! شعرت ماريغولد وكأنه أكبر حجماً وأكثر وسامة، فيما تضاعفت جاذبيته المهلكة مرتين عما تتذكرها. لقد شعثت الرياح الشمالية التي كانت تهب طوال النهار شعره الأسود، أما عيناه الرماديتان فبدتا ضيقتين يشوبهما الحذر. بدا متعباً حتى الإرهاق، كما لاحظت وقد تملكتها الصدمة.

قالت بفتور: «كيف عرفت بيتي. هل أخبرتك إيما...؟».

فقاطعها بجفاء: «لا. لم تخبرني إيما. فلنقل فقط إن إيما أسعدها جداً أن تصفق الباب في وجهي ثم تدع الأمر عند هذا الحد».

قالت بضعف، وهي تحاول أن تتعوّد على فكرة وجود فلين هنا، عند عتبة بابها: «وأنت كنت فظيعاً معها».

ـ لقد هربت من دون عقاب، تباً لها!

ـ وكيف عثرت عليّ؟

ـ من يبحث يجد. ليس هناك الكثير ممن يحملون اسم (فلاور) في لندن. وكان رقمك هو الخامس الذي جربته سكرتيرتي. المجيب الآلي أعطى اسم ماريغولد... هل ستدعيني للدخول؟

ـ آه، نعم. طبعاً.

بدت ماريغولد من الاضطراب بحيث كادت تسقط على الأرض عندما تنحّت جانباً لتدعوه إلى الدخول.

تابع فلين بهدوء: «أنا في لندن منذ ست وثلاثين ساعة بعد أن اتصلوا بي من المستشفى لحالة طارئة».

وقف عند عتبة غرفة الجلوس الصغيرة وراح ينظر حوله باستحسان، قائلاً: «هذا ساحر للغاية».

ـ شكراً.

كانت قد أمضت كل ليلة لمدة شهر في طلاء شقتها وتجديد ورق الجدران بعد انفصالها عن دين مباشرة، صارفة بالعمل أفكارها عن الاستسلام للألم والغضب والمرارة. لجأت إلى الألوان الزاهية لكي تخفف من كآبتها الداخلية. قامت بطلاء غرفة الجلوس بلون أصفر فاقع يشبه لون زهرة عباد الشمس، كما اختارت اللون الوردي للأريكة والستائر. عاد يقول وعيناه تبتسمان: «لقد أعجبتني كثيراً وهي تلائمك».

آه، لقد بدا شخصاً آخر. شخص صعب خطير وأكثر جاذبية من أي رجل آخر. حاولت ماريغولد أن تخفف من تسارع خفقات قلبها وهي

تقول: «لماذا جئت، يا فلين؟».

فأجاب باسماً: «لأراك. فأنت لم تقولي وداعاً. هل نسيت؟».

ـ وهل جئت إلى هنا لتقول وداعاً؟

ـ ليس بالضبط.

واقترب منها ليضمها في عناق محموم، أحدث في أعماقها تجاوباً فورياً. ثم رفع رأسه وهو يقول بشيء من السخرية: «لا، ليس بالضبط. لكنك تعلمين هذا، أليس كذلك؟ تماماً كما كنت تعلمين أنني سألحق بك».

فقالت ساخطة: «لا، لم أكن أعلم».

وكان صوتها يحمل نبرة صدق واضحة. فقطب جبينه وأمال رأسها بيد حازمة ثم قال برقة من دون أن يبتسم: «إذن، كان عليك أن تعلمي ذلك».

ربما، لكنها لا تعرف كل «ألاعيب» الحب مثل نسائه الخبيرات. فهي فتاة مكافحة ذات اسم سيء الحظ هو: ماريغولد فلاور. إنها فتاة عادية، لا تسمح للأفكار بأن تأخذها بعيداً، فتحلم أحلاماً مستحيلة.

ـ جئت أسأل إذا كان بإمكاننا أن نتعرف إلى بعضنا البعض أكثر.

قال هذا برفق وهو يرى الاضطراب والتراجع يبدوان بوضوح على وجهها: «هل يناسبك هذا؟ لا تخافي. مجرد مواعيد بين وقت وآخر عندما أكون في المدينة. عشاء حيناً وجولة في السيارة للنزهة والتفرج على المعالم أحياناً أخرى. سنكون معاً فقط من دون أي نوع من الارتباط».

حدقت إليه غير واثقة. ماذا يعني كل هذا بالضبط؟ سألته وهي ترتجف: «بصفتنا... صديقين؟»

نظر إليها لاوياً شفتيه: «هل هذا ما تريدينه؟

فأومأت بسرعة: «أنا لست مستعدة لما هو أكثر من ذلك».

كان لا يزال يمسك بذقنها، واحتدت نظراته وكأنه يتفحص أعماقها حتى شعرت وكأنه يخرج روحها لكي يفحصها. ثم، وبشكل غير متوقع أبداً، ابتسم ابتسامته المدمّرة تلك ثم جذبها إلى صدره الصلب حيث استقرت ذقنه على قمة رأسها.

وقال بتكاسل: «صديقان حميمان».

دفء جسده، رائحته والشعور به أسكرتها. وبالرغم من شعورها بالدهشة والصدمة والتردد أحست بالإنتعاش والإثارة لأنه عثر عليها ولأنه هنا الآن. وكانت مسرورة... مسرورة للغاية: «سأعد قهوة ما رأيك؟».

وابتعدت عنه قليلاً: «لا بأس ببعض القهوة».

وحرّك كتفيه الجبارتين تحت المعطف الذي يرتديه: «كان يوماً مأساوياً. حادث سيارة خطر تأذى فيه طفل في الثامنة من العمر فقط».

ـ ولكن ألن يشفى؟

ـ عمليتان كبيرتان خلال ست وثلاثين ساعة كما احتاج الطفل إلى نقل دم. نعم، سيشفى، لكنه أمضى فترة بين الموت والحياة، وكنا على وشك أن نفقده أكثر من مرة.

سألته وكأنما أدركت فجأة سبب إرهاقه: «كنت تعمل طوال ست وثلاثين ساعة؟».

فهز كتفيه: «تقريباً، إنها مهنة كل شيء أو لا شيء».

وهو أيضاً رجل من نوع كل شيء أو لا شيء.

ـ ألم تتناول طعامك بعد هذه الليلة؟

شعرت بالارتياح لأنها نظّفت شقتها منذ يومين وملأت الثلاجة بأصناف متنوعة من الطعام. فهز رأسه: «أظنني أكلت في وقت ما أمس. أما اليوم، فكان الطعام قهوة وبسكويت. كنت سأقترح أن آخذك لتناول العشاء في الخارج إذا لم يكن لديك مانع».

حدقت إليه غير مصدقة وسألته: «هل جئت إلى هنا بسيارتك؟».

ـ بل في سيارة أجرة.

ـ في هذه الحالة سأحضر لك كوب عصير بينما تخلع معطفك وترتاح. هل يعجبك لحم العجل المشوي مع الليمون والزنجبيل والخضار المقلية؟

شعرت بالرضا وهي ترى عينيه تتسعان دهشة. قد لا تكون بارعة في تحضير الطعام مثل برتا، لكن بإمكانها دوماً أن تعد وجبة حسنة عندما تريد.

قال برقة، وبلهجة أرسلت رعشة شوق في جسدها: «سيكون هذا عظيماً إذا كنت واثقة».

واثقة؟ لم تعد واثقة من شيء منذ وقع نظرها على فلين مورو لأول مرة.

ـ واثقة تماماً.

ابتسمت وكأنها دوماً متمالكة لنفسها إلى حد كافٍ، ثم سارت إلى الموقد الصغير تشعله وهي تقول: «إجلس وأدفىء نفسك فيما أسكب لك العصير».

كان يخلع معطفه عندما التفتت إليه فأثارت حركاته العادية أعصابها. وعندما عادت من المطبخ بالعصير كان الأمر أسوأ. فقد بدا واضحاً أنه طبّق كلمتها بالنسبة إلى الراحة، فخلع سترته وفك ربطة عنقه ليبقيها معلقة في رقبته، وفك أزرار قميصه العليا ليكشف عن صدره الأسود القوي. كان يتأمل صورة فوتوغرافية لأبويها.

مضت لحظة نسيت فيها ماريغولد كيف تمشي ثم عادت فاستطاعت أن تسير إليه مترنحة. سألها وهو ينظر إلى الصورة مائل الرأس: «أبواك؟»

أومأت ماريغولد وهي تناوله كوبه وتقول: «التقطت هذه الصورة لهما في السنة الماضية».

عادت عيناه إلى الصورة. بدا الرجل رمادي الشعر رزيناً، وذراعه تلتف حول كتفي زوجته الضاحكة التي بدت صغيرة الحجم ومتألقة.

قالت برقة وفي صوتها حب كبير: «أحب هذه الصورة لأنها تظهر شخصيتهما الفعليتين. أبي محام يحب الاستقامة واللياقة، وأمي... حسناً، إنها ليست كذلك».

قالت هذا بأسف ثم أضافت: «لكن كل منهما يرى بعيني الآخر».

سألها وهو ينظر إليها: «هذا واضح. هل هما متعلقان بك؟»

ـ نعم، أظن ذلك. ربما ليس بالقدر الذي كانا عليه منذ فترة قصيرة قبل أن أنتقل لأعيش وحدي. لكن هذا التغيير كان ضرورياً لأمي كما هو لي. فقد أرادت إنجاب الكثير من الأطفال، لكنها تعرّضت لمشاكل صحية

بعد مولدي فلم تتمكن من إنجاب أطفال آخرين ما جعلني مركز اهتمامها. إنما اختلاف شخصيتينا سبب لنا مشاكل حينذاك لكننا بأحسن حال الآن. لقد تقبّلت فكرة أنني أصبحت راشدة مستقلة الآن ولي طريقتي الخاصة في معالجة أموري... غالباً.

أضافت كلمتها الأخيرة باسمة، ثم سألته: «وماذا عنك أنت؟ هل ترى والديك كثيراً؟».

ـ ليس كثيراً.

وعاد يتأمل الصورة وهو يقول بفتور: «لقد تطلقا عندما كنت في الخامسة، ثم عادا إلى بعضهما البعض وأنا في الثامنة، ثم عادا فتطلقا عندما كنت أقترب من سن المراهقة. ومنذ ذلك الحين تزوجا مرات عدة. تزوجت أمي والد سيلاين حين كنت في الثامنة عشرة حيث تعارفنا، أنا وسيلاين، لأول مرة. وكان هذا زواج أبيها الثالث.

ولم تعرف ماريغولد ماذا تقول.

ـ دام زواج أبوينا ثلاث سنوات، ولكن إلى أن تطلقا، كنا، أنا وسيلاين، قد أصبحنا صديقين حميمين. كنا نفهم بعضنا البعض لأننا كما أظن مررنا بظروف متشابهة في طفولتنا.

أومأت ماريغولد من دون أن تنبس بكلمة. سماعها اسم المرأة من بين شفتيه آلمها أكثر مما تتصوّر.

ـ تربيت في جوّ ثراء بالغ وأهداف قليلة للغاية. وكنت بحاجة إلى أن أحطّم هذه الدائرة قبل أن تحطمني. لهذا، اخترت مهنة الطب.

ونظر إليها وابتسامة باردة تلوي فمه: «وإذا بذلك يتحول بضربة حظ، إلى ما يناسبني تماماً. كنت طالباً جيداً، وقد أثارت اهتمامي أمراض الجهاز العصبي. والبقية، كما يُقال، أصبح تاريخاً».

أرادت ماريغولد أن تسأله المزيد عن سيلاين. متى أدركا أنهما يحبان بعضهما البعض؟ ما الذي تسبب بفصم خطوبتهما؟ لكنها أدركت أن هذه اللمحة القصيرة عن ماضيه انتهت.

ابتلعت جرعة كبيرة من العصير علّها تشعر بالهدوء ثم ابتعدت عنه قائلة: «إجلس واسترح ريثما أهتم بالعشاء. يمكنك أن تشاهد التلفزيون في هذه الأثناء».

وسرعان ما هربت إلى حيث الأمان الضعيف في مطبخها الصغير. أشعلت الفرن بعد أن وضعت فيه صينية الشواء التي تحتوي على فخذ العجل ثم حضّرت بسرعة الصلصة المناسبة والمؤلفة من الليمون وصلصة الصويا والعسل والثوم والزنجبيل ومكوّنات أخرى، ثم سكبتها على الفخذ المشوي. دست الصينية في الفرن، ثم وسارت إلى غرفة الجلوس.

كان شبه مستلقٍ على الأريكة في وضع مريك وكأن النوم باغته فجأة، كما ظنت ماريغولد عند سماع دقات قلبها الفزعة. كانت إحدى يديه على رأسه، فيما يمسك كوبه باليد الأخرى. فكرت ماريغولد في أن هذه هي المرة الأولى التي تراه فيها ضعيفاً عديم الدفاع. وكادت هذه الفكرة تخطف أنفاسها.

بدا أثناء نومه مختلفاً وكأنه أصغر سناً. كما بدت الخطوط الخفيفة حول عينيه وفمه أقل وضوحاً وساهمت أهدابه الكثيفة السوداء في إضفاء مظهر الفتوة عليه. حتى النوم لم يستطع أن يخفي رجولته الفياضة التي تشكّل جزءً هاماً من جاذبيته.

لم تستطع ماريغولد أن تمنع نفسها من التقدم نحوه، رغم أن جزءاً منها راح يعترض بأنه لو انعكس الوضع وكانت هي النائمة، لكرهت أن يتأملها فلين طويلاً من دون أن تدرك ذلك.

بدت بذلته رائعة التفصيل وغالية الثمن، وكذلك القميص وربطة العنق. لكنها رأت أن فلين يبدو رائعاً أيضاً وهو يرتدي بنطلون الجينز والكنزة اللذين كان يرتديهما عندما أحضر لها شجرة العيد من الغابة.

نظرت إلى فمه الذي بدا مسترخياً لكنه ما زال يتمتع بتلك الجاذبية المدمّرة. وتأملت ذقنه المربعة فيما بدت لحيته السوداء النابتة حديثاً واضحة تماماً.

مجرد النظر إليه جعلها تشعر بالوهن في ركبتيها.

ركعت بجانب الأريكة، محدثة نفسها بأنها تريد فقط أن تأخذ الكوب الفارغ من بين أصابعه المتراخية لتضعه على منضدة القهوة الصغيرة.

قربها منه إلى هذا الحد وهالة الرجولة التي تحيط به أثارا اضطرابها. أخذت الكوب من بين أصابعه ببطء بالغ ثم وضعته على الأرض بجانب الأريكة من دون أن تلتفت إلى منضدة القهوة، فهي لم تستطع أن تحوّل عينيها عن وجهه النائم.

لمست ذقنه الخشنة بأصابعها بخفة بالغة. لم تستطع أن تمنع نفسها. وأغمضت عينيها لحظة واحدة، عالمة أن عليها أن تبتعد عنه وتذهب إلى المطبخ. وعندما فتحتهما، كانت العينان الفضيتان تحدقان مباشرة إلى عينيها البنفسجيتين المصدومتين.

بدا وكأنها لا تستطيع القيام بحركة ما عدا مبادلته النظر، فقد جمدتها الصدمة. طوقتها ذراعاه وهو يتمتم: «هذا حسن...».

كانت هذه تمتمة رجل راضٍ وهو يحتضنها بشدّة وإحكام بحيث لم تجد فائدة من المقاومة. ولم تشأ ذلك على أيّ حال.

أرسل عناقه شلالاً صغيراً من المشاعر في أعصابها وعضلاتها. وفجأة، كأنما إنذار رن في رأسها فتصلّب جسدها، وأحس فلين بتراجعها فقال بصوت رقيق أجش: «لا بأس، يا حبيبتي. أنا لست فتى غير ناضج لألحّ عليك لتعطيني أكثر مما تسمحين به. ارتاحي...»

ـ عليّ... عليّ أن أنتبه للعشاء.

واستقامت في جلستها، ولم يحاول هو أن يمسكها: «تباً للعشاء».

لكن صوته بدا كسولاً أكثر منه مزعجاً.

وقفت بسرعة وقد توهج وجهها.

ابتسمت بضعف وهي تعود إلى المطبخ وراحت تقطع البصل إلى شرائح بحركة عنيفة. بعد كل ما قالته عن بقائهما صديقين إذا بها تذهب إلى الرجل

وتكاد ترتمي بين أحضانه.

هل يدعو كل نسائه «يا حبيبتي؟».

جاءتها هذه الفكرة من مكان ما فجمّدتها مكانها، وأمضت نصف دقيقة وهي تحدق إلى الجزر، بانتظار أن تهدأ أعصابها، بعد ما رأت تصرفها السابق مع البصل.

ثم هزت رأسها بضيق. هذا لا يهم! حدثت نفسها بحزم فقد أخبرها للتو أنه يريد أن يخرجا معاً أثناء وجوده في المدينة وذلك لكي يتعرفا إلى بعضهما البعض بشكل أفضل. وتوهج وجهها احمراراً وهي تتذكر عناقه لها.

ولكن هذا ذنبها هي، وليس ذنبه، كما ذكرت نفسها بنزاهة. فقد كان الرجل المسكين مرهقاً تماماً ومستغرقاً في النوم فجاءت لمستها لتوقظه من نومه فوجدها قريبة جداً منه.

في تلك اللحظة سمعت صوته الناعس من عند عتبة الباب: «أتريدين أي مساعدة؟».

ـ لا. أنا بخير.

وألقت بالبصل في مقلاة واسعة، وابتدأت تقطع الجزر من دون أن تلتفت إليه، ثم أضافت بسرعة: «أنا آسفة لأنني أيقظتك. لم أكن أقصد ذلك...».

وتلاشى صوتها...

ـ أنا مسرور لأنك فعلت ذلك... أعني أيقظتني.

أمكنها أن تشعر بنظراته على رقبتها، وأدركت أن هذا الرجل يسخر منها رغم أنها لم تجرؤ على أن تلتفت إليه: «ما دمت قد استيقظت الآن، هل لك أن تعدّ المائدة في غرفة الجلوس؟».

كانت المائدة مطوية إلى جانب الجدار ولم تكن ماريفولد تستخدمها إلا عندما يزورها ضيف. لكنها تكفي لجلوس شخصين.

ـ ستجد الفوط والكؤوس وبقية الأغراض في الخزانة.

والتفتت تشير إلى خزانة الجدار عند باب المطبخ وهي تتجنب النظر إلى عينيه.

ـ حسناً.

بعد عشر دقائق أنهت تحضير الخضار المقلية مع لحم العجل وزينت الأطباق بشرائح الليمون الطازج. كانت قد هدأت بما يكفي لكي تواجهه بابتسامة متألقة وهي تسير إلى غرفة الجلوس حاملة الصحنين.

ـ آوه!

لقد طهت كمية كبيرة إذ يبدو عليه الجوع بقدر ما يبدو عليه الإرهاق. وكانت مكافأتها أن رأت وجهه يشرق لمرأى الطبقين الممتلئين.

ـ الحلوى هي فطيرة البندق والآيس كريم لكني اشتريتها من المحل، مع الأسف. لدي أيضاً أرز بالحليب حضرته بالأمس إذا كنت تفضل.

ـ هل لديك مربى فريز مع الأرز بالحليب؟

سألها مسبباً لها الاضطراب مرة أخرى، وهو يسحب لها كرسياً تجلس عليه عند المائدة قبل أن يجلس هو.

لم يعاملها أي رجل عرفته، حتى دين، بمثل هذا التهذيب. بدا لها ذلك حسناً... حسناً جداً. لم تجرؤ على أن تعتاد على هذا، وإن كان هذا لا يعني أن فلين يحبها، طبعاً. قالت له: «مربى الفريز؟ أظن ذلك».

ـ عظيم.

وابتسم لها ابتسامة عريضة فتساءلت كم من النساء وقعن في غرامه من أول نظرة، أم أن هناك من تطلّب معها ذلك بعض الوقت؟

راح فلين يتصرف بشكل طبيعي ما جعلها تشعر بالارتياح. ووجدت نفسها تستمتع ببقية السهرة.

انتهت السهرة بهدوء فشربا القهوة مع الحلوى. ولم يكن فلين يبدو مهدداً بل مرافقاً مسلياً أخذ يبهجها بقصص خلاّبة عن حياته وعمله. أحست أنه يطلعها على قصص النجاح ولحظات التفاؤل، وأن ثمة ناحية مظلمة في عمله، لكنها انسجمت مستمتعة بكل لحظة. وأدهشها أن بإمكانه

أن يسخر من نفسه ومن مركزه ووضعه الاجتماعي واحترامه لذاته. بدا ذلك محبّباً جداً حتى أن ماريغولد كان عليها، أكثر من مرة، أن تمسك قلبها عن التأثر.

وعندما أراد أن يخرج حوالى الساعة الحادية عشرة، شجعت نفسها متوقعة عناقاً محموماً قبل النوم أو ربما تلميحاً إلى أنّ بإمكانه أن يبقى. لكنه بدلاً من ذلك طلب سيارة أجرة ثم ارتدى سترته ومعطفه وعانقها عناقاً عابراً قبل أن يسير إلى الباب الخارجي. وعندما وقفا عند العتبة سألها برقة: «هل تسمحين لي بأن أدعوك على العشاء تعبيراً عن شكري لهذه الليلة؟».

أومأت ماريغولد برأسها موافقة.

ـ الساعة الثامنة من مساء الغد؟

فأومأت مرة أخرى.

ـ تصبحين على خير، يا حبيبتي.

ثم خرج.

* * *

٨ ـ غيرة.. كراهية.. أم حب؟

كانت تلك الليلة هي الأولى من ليال كثيرة أمضتها ماريغولد برفقة فلين. دعاها إلى العشاء، أخذها إلى المسارح، إلى نوادٍ للتسلية وإلى حفلات ونزهات في الخارج مع أصدقائه.

وإذا ما أمضى عطلة نهاية الأسبوع في لندن، كانا يرتادان المعارض الفنية والمكتبات، أو يذهبان في نزهات طويلة على الأقدام على ضفاف نهر التايمز، أو يمضيان النهار في النوادي الرياضية وأماكن التسلية الخاصة التي كان فلين عضواً فيها. ولم يحدث أن تصرف فلين ولو مرة واحدة إلا كصديق حريص على إرضائها وكمرافق ساحر ظريف.

وكان هذا يقود ماريغولد إلى الجنون.

عبثاً حاولت أن تقنع نفسها بأنه يتصرف بهذا الشكل بناءً على طلبها ولأنها وضعت قواعد حاسمة جداً وحدوداً صارمة بسبب مشاعرها المتضاربة نحوه، وأن هذه هي أفضل الوسائل لقضاء الوقت على الإطلاق.

ففي كل مرة يمسك فيها بيدها أو يشدّها إليه، وفي كل مرة يعانقها قبل أن يفترقا عند المساء أو يضع ذراعه حولها أو يملس على شعرها فيما هما جالسان معاً كانت تنتظر منه أن ينتقل إلى الحركة التالية... لكنه لم يفعل!

حاولت أن تقنع نفسها بأن السبب في تململها هذا هو تلك التغييرات التي أجرتها في حياتها وهي كثيرة.

عندما عادت إيما إلى المكتب في بداية شهر كانون الثاني وافقت على بيع الكوخ. فيبدو أنها أمضت فيه وقتاً فظيعاً، حيث لم تتمكن من إشعال النار

مرة من دون أن تملأ الكوخ بالدخان. كما واجهت مشكلة في حوض الغسيل في المطبخ... وهذا قليل من كثير عانته.

أما النقطة الأخيرة التي جعلت الكوب يفيض، فهي دخول فأرة إلى غرفة النوم ذات ليلة.

كانت إيما قد قررت أن تسافر في مطلع السنة الجديدة إلى أوروبا لقضاء فترة مع إحدى صديقاتها فهي تريد شفاء قلبها الجريح بعد خروج أوليفر من حياتها. ونظراً لعزلة الكوخ وبعده عن لندن، بدا الثمن الذي طلبته معقولاً جداً. تمكنت ماريغولد من دفع نصف ثمن الكوخ من الإرث الذي ورثته عن جديها لأمها منذ سنوات والذي لم تمسه حتى الآن. وبعد أن جالت قليلاً في الأنحاء، وجدت مصرفاً مستعداً لإعطائها قرضاً لدفع ما تبقى، ما يعني أن الأقساط التي يتوجب عليها دفعها بعد ذلك ستكون سهلة ومنخفضة. كما سهّل عليها الأمر، الحل الذي اقترحته إيما لتصريف محتويات الكوخ من إثاث وأمتعة... فلم يحتسب أي ثمن لها.

أرسلت ماريغولد إشعاراً إلى صاحب الملك بأنها ستخلي شقتها في آخر شهر آذار بعد أن قررت الانتقال إلى إقليم «شروبشاير» حيث يقع الكوخ. كما طبعت نسخاً عدة من سيرتها الذاتية مصحوبة برسالة تشرح فيها أنها ستعمل حرة من مسكنها الجديد، ثم أرسلتها إلى كل الزبائن وإلى الشركات التي تتعامل معها. وقد تلقت أجوبة عدة مشجعة بشأن العمل معها في المستقبل القريب، بالإضافة إلى أن صاحبي الشركة التي تعمل فيها حالياً وعداها بأن تبقى التصميمات الجديدة لبطاقات المعايدات بين يديها القديرتين.

ومع بداية شهر آذار، وقعت أحداث عدة تركت ماريغولد لاهثة.

عند الساعة العاشرة من صباح يوم عاصف من شهر آذار، أصبح الكوخ أخيراً ملكاً لها. وفي الساعة الحادية عشرة اتصلت بها شركة صغيرة عند حدود إقليم «شروبشاير» حصلت على اسمها من الشركة الأم في لندن، لتسألها إن كان يهمها أن تتعاون معها في إصدار تقويم في نطاق الريف

الإنكليزي فضلاً عن بطاقات ومفكرات ودفاتر... الخ.

وتملكتها الحماسة... ها قد بدأ العمل!

وفي نهاية آذار، وقعت ماريغولد على الاتفاقية وقلبها يخفق بحماسة.

وبدا لها أن هذا المشروع سيلاقي النجاح، فلديهم كل الأسباب التي تجعلهم يؤمنون بنجاحه حيث أن الشركة الأم تنوي أن تقدم الدعم الكلي لهم.

وفي الثالثة من بعد ظهر اليوم نفسه، رنّ جرس الهاتف على مكتبها فرفعت السماعة لتقول بصوت مرح، بعد كل ما حدث في الصباح: «نعم».

ساد صمت قصير قبل أن يأتيها صوت رجل: «ماريغولد؟ أنا دين، أنا... أنا أتساءل عن حالك».

ـ دين؟؟؟

لو أن المتكلم على الطرف الآخر كان ملكة انكلترا لما شعرت ماريغولد بدهشة أكبر.

ـ لا تقفلي الخط.

بدا صوته متلهفاً، فقطبت جبينها: «لم أكن أنوي إقفاله».

لا بد أن دين اعتبر جوابها نوعاً من التشجيع، لأنه قال بقوة: «لقد افتقدتك... افتقدتك أكثر مما يمكن أن تعبّر عنه الكلمات. كنت أحمق يا ماريغولد. هل ستصفحين عني؟».

أبعدت السماعة عن أذنها لحظة وهي تنظر إليها بحيرة، ثم قالت: «ما حدث بيننا أصبح من الماضي الآن، يا دين».

ـ ولكن هل تصفحين عني؟

هل تصفح عنه؟ وفكرت ماريغولد لحظة ثم أدركت أنها لم تفكر في دين وتامارا في الشهرين الأخيرين. فقالت بثبات: «لقد تغيرت أمور كثيرة في حياتي، ولا بد أن هذا يعني أنني صفحت عنك».

ـ لم أعد أعيش مع تامارا. لقد قادتني إلى الجنون. تريدني أن أهتم بها دوماً ولا شيء يرضيها على الإطلاق. إنها ليست مثلك يا ماريغولد.

طفلان مدللان مغروران! كان من السهل أن تدرك أن الأمور لن تسير بشكل جيد بالنسبة إليهما.

ـ أعلم أنني آلمتك لكنني أفتقدك حقاً صدقيني. كنت ملجأي دوماً... والشخص الذي أعتمد عليه.

عليها أن توقف هذا فهي لا تريد أن تكون ملجأ لأحد. وهي تدرك بوضوح تام أن دين لا يستطيع أبداً أن يعطي من ذاته. دين لا يهمه سوى دين.

ـ دين، لو كانت الأمور جيدة بيننا لما ذهبت مع تامارا. من الجيد أننا اكتشفنا هذا قبل الزواج.

ـ لا، لا، الأمر ليس كذلك على الإطلاق.

بدا صوته متلهفاً، وأدهشها أن تشعر بالأسف من أجله. كانت كمن يصغي إلى طفل... إلى طفل أناني كسر لعبته في ثورة غضب وهو الآن يطالب بأن يعيدوها إليه كما كانت. لقد قال لها فلين إنها ربما ستموت قبل أن يكبر دين وينضج، وهو على صواب. قالت بحزم: «أنت الذي قررت الذهاب مع تامارا. وبصراحة، أظن أنّ هذا هو الحل الأفضل لنا نحن الإثنين، إذ من الواضح أنك لست مستعداً للزواج ولا شك أننا كنا سنصل إلى كارثة. ستجد المرأة المناسبة في المستقبل يا دين، لكنها لن تكون أنا. وداعاً».

ووضعت السماعة بحزم وقلبها يخفق بسرعة حتى ليكاد ينفجر. عاد الجرس يرن من جديد لكنها لم ترفع السماعة، بل فتحت جهاز الإجابة.

ـ ماريغولد، إرفعي السماعة، أرجوك يا ماريغولد إرفعيها.

ثم مضت ثوانٍ عدة من الصمت، ليتعالى صوته مرة أخرى بنبرة شرسة: «أنا أعلم أنك موجودة. اسمعي، إذا أردتني أن أعفّر وجهي بالتراب فسأفعل، لكنك تعلمين أننا خلقنا لبعضنا البعض. أنت تحبينني. لطالما كنت تحبينني. أنا بحاجة إليك».

تلا ذلك لحظات أخرى من الصمت، ثم وُضعت السماعة في الطرف

الآخر.

تنفست ماريغولد الصعداء. ستة أشهر مرت، ومع ذلك توقع دين أن يستأنفا علاقتهما من حيث توقفا، وكأن شيئاً لم يحدث خلال تلك الأشهر الستة؟ بدا الأمر مضحكاً إن لم نقل مأساوياً.

راحت ماريغولد تنظر إلى مكتبها المغطى بالأوراق وأفكارها تتسابق. لم يسألها إن كان لديها صديق، ويبدو أن ذلك لم يخطر بباله.. هذا أمر لا يصدق. هل يظن أنها كانت تجلس بانتظار اتصال منه طيلة هذا الوقت؟ إنه لا يعرفها على الإطلاق... واعترفت لنفسها أنها، هي أيضاً، لم تكن تعرفه، وهذا مخيف.

عضت شفتها وقد تملكها ذلك الشعور بالقلق والذعر. فكم من الأزواج ينجحون في زواجهم ويمضون العمر معاً، كما هي حال والديها؟ فبحسب ما تراه، ثمة الكثير من الأزواج غير المتناسبين على الإطلاق، كما كانت لتصبح لو أنها تزوجت دين... كيف يمكن للمرء أن يعرف إذا كانت العلاقة الزوجية ستدوم أم لا؟

أخذت رشفة من فنجان القهوة، وكانت إيما قد أعدت ما يكفي منها لكل من في المكتب. لقد نجحت إيما في إعداد قهوة أشبه بماء غسل الصحون. التفكير بتلك الفتاة حوّل أفكارها إلى الكوخ ومن ثم إلى فلين، فأدركت أن تأملاتها السابقة لم تكن لها صلة بدين بل بفلين. إنها مولعة به إلى أقصى حد.

وقفت متململة وسارت إلى النافذة. أخذت تنظر إلى الشارع المزدحم تحتها. لقد تمكن دين من إخفاء شخصيته الحقيقية عنها، ولم يكن لديها من الخبرة ما يجعلها تدرك خداعه. لكن بالمقارنة مع فلين، كان دين أشبه بالفتى الصغير. كيف يمكنها أن تفهم فلين؟ لقد اقترفت مع دين غلطة كبرى، وهي ليست بحاجة إلى اقتراف غلطة أخرى... وحتى لو تمكنت من نسيان شبح سيلاين، فإن فلين مورو ينتمي إلى طبقة اجتماعية بعيدة كل البعد عن طبقتها.

بهتت كل حماستها للكوخ ولعملها الجديد، وتملكها دافع سخيف لأن تنفجر بالبكاء . ولكن، وبدلاً من ذلك ابتعدت عن النافذة عائدة إلى مكتبها حيث انكبت على كومة الأوراق وراحت تعمل بعزم وعبوس.

لا مزيد من التفكير . . . لا مزيد من «إذا» و«لكن» . . . لديها عمل عليها أن تنجزه.

تركت المكتب متأخرة أكثر من المعتاد، وعندما خطت على الرصيف كادت الريح تقذف بها. يبدو أن ثمة عاصفة قوية تتشكل في الأفق، كما أدركت وهي ترفع بصرها إلى السماء الغاضبة.

تسوّقت في طريقها إلى شقتها، وراحت تناضل وهي تسير في الشارع الذي يمتد بين بيوت مؤلفة من ثلاثة طوابق. وضعت الأكياس أمام باب شقتها، وفتحت حقيبة يدها لتخرج المفتاح فيما الرياح تولول والظلام يلف المكان. وفجأة، لامست يد كتفها فكادت تقفز من مكانها.

ـ أسف. هل أفزعتك؟

ـ دين!

استدارت بسرعة فاصطدمت بأحد تلك الأكياس المليئة بالبقالة فتناثرت حولهما محتوياته. أخذا يلملمانها ويعيدانها إلى الكيس. سألته بلهجة عنيفة: «ما الذي جعلك تأتي إلى هنا؟ أظننا قلنا كل ما ينبغي أن يقال عصر هذا اليوم».

ـ كان عليّ أن أحضر.

وانتصب واقفاً وهو يحتضن كيس المشتريات بين ذراعيه. أخذت ماريغولد تحدق إليه وهي تعجب من نفسها كيف لم تلحظ من قبل مدى هزاله. بدا وجهه جميلاً لكنه صبياني. . . ما هي تلك الكلمة التي تصفه؟ «طفولي»؟ نعم، هذه هي صفته كما فكرت وهي تتأمله صامتة. . .

مدّت يدها لتأخذ منه الكيس وهي تقول: «لا فائدة من ذلك يا دين، إذهب أرجوك».

فقال متجاهلاً يدها: «أنت لا تعنين ذلك».

واقترب منها فتراجعت حتى انحشرت بالباب بينما تابع يقول: «لا يمكنك إبعادي عنك. نحن خلقنا لبعضنا البعض».

إلى جهنم بهذا القول! لو كان فلين هنا لأسمعه هذا الجواب. هذه الفكرة جعلت ماريغولد تطرف بعينيها وكأنها سمعت صوته، وقالت: «إستغرقت وقتاً طويلاً لكي تكتشف هذا. لقد انفصلنا في نهاية شهر آب، أليس كذلك؟».

حدّق إليها وقد فوجىء بلهجتها. يبدو أنه توقع أن ترتمي بين ذراعيه مستسلمة بعد أن تنازل وعاد إليها. لم تحسّ ماريغولد بذرة من المشاعر حين رأته مرة أخرى، وإنما شعرت بالانزعاج فقط. والآن، وهو يواجهها شخصياً، أدركت أنه لم يعد يعني لها شيئاً على الإطلاق.

ـ سأدع الأمر لك. أعدك يا «دي».

أزعجها أن يناديها باسم التدليل ذاك.

واندفع دين فجأة إلى الأمام وأمسكها بيده الطليقة محاولاً أن يعانقها.

مرت لحظة جمّدت فيها الدهشة ماريغولد. لكنها رأت من زاوية عينها سيارة تقف في الطريق بالقرب منهما. وأدركت من في داخلها، حتى قبل أن تلتقي عيناها بتلك العينين الفضيتين الثلجيتين. أدركت أنه فلين. . . إنه القدر.

دفعت دين عنها بعيداً وهي تصرخ به بحدة: «إياك. . . إياك. . . أن تلمسني».

ـ ولكن «دي». . .

رأى عينيها مسمرتين خلفه، فاستدار وكيس البقالة لا يزال في يده، ليرى الوجه الحجري البارد ينظر إليهما.

خشيت ماريغولد أن يبدو منظرهما وكأنه عودة من رحلة تسوّقا فرحة، ويبدو ما حصل وكأنه عناق عند الباب. لذا توقعت من فلين أن يأمر السائق بمتابعة طريقه.

وبدلاً من ذلك انفتح باب السيارة، وخرج فلين من المقعد الخلفي

بطوله وعرضه مقزّماً دين بجسمه الخفيف وقال: «مرحباً يا ماريغولد».

لولا وجهه الغاضب المظلم لبدا صوته طبيعياً تماماً، كما فكرت ماريغولد بشيء من التوتر. تابع فلين يقول بنعومة فولاذية: «مررت فقط في زيارة سريعة، لكنني أراك مشغولة».

شعرت باستياء مرّ لأن فلين افترض أنها موافقة على ما يحدث ما جعل صوتها منفعلاً وهي تجيب: «كان دين على وشك المغادرة».

ـ أحقاً؟

ونظر فلين إلى الرجل الآخر للمرة الأولى بعينين لاذعتين.

بالرغم من فظاظة الموقف، مرّت بماريغولد لحظة تسلية حين لاحظت الصدمة التي بدت على وجه خطيبها السابق.

وتابع فلين: «لا تدعني أعطلك عن الذهاب».

تكلم ببرودة بالغة قبل أن يحوّل بصره إلى ماريغولد.

لا ضرورة لمزيد من محاولات الاقناع، فقد دفع دين كيس البقالة إليها بعنف، وبدا وجهه كالرعد قبل أن يختفي في الشارع.

قالت بضعف: «كان ذاك دين».

فقال بلهجة لاذعة: «هذا ما قلته منذ قليل».

ـ لم أكن أعلم أنه سيأتي إلى هنا. لقد اتصل بي هاتفياً عصر اليوم، وإذا به يعود فيظهر عند عتبة بابي. لم أشأ.. أعني أنني لم أكن أريد...

وسكتت فجأة. فسألها بهدوء: «أتريدين أن تقولي إنك لم تطلبي منه الحضور إلى هنا ولم تشجعيه على معانقتك؟»

ـ نعم.

وكان هذا غباءً منها في الحقيقة. فإذا كانت تعتقد أن لا مستقبل لعلاقتها مع فلين لكان بإمكانها أن تستغل هذه الفرصة لتدع فلين يظن أنها ما زالت على علاقة مع دين وهكذا ينهي هذه «الصداقة» بينهما.

ـ هذا حسن.

وتقدم نحوها، غافلاً عن سائق السيارة الذي راح يراقب التطورات

باهتمام: «أنا مسرور لذلك».

فسألته بضعف وذهول: «هل تصدقني؟»

ـ طبعاً أصدقك. ألم تتوقعي مني ذلك؟

ولوى شفتيه بابتسامة جافة.

ـ أنا...

وتلاشى صوتها... لم تعرف ما الذي توقعته: «أنا...»

ـ لا بأس. يمكنني أن أصل إلى استنتاجي الخاص.

ثم رفع ذقنها بأصابعه الدافئة قبل أن يضيف بصوت جاف للغاية: «أرى أنه ما زال علينا أن نجري بعض التقدم».

ـ ماذا؟

عاد فلين إلى سائق السيارة لينحني ويناوله أجرته مع هبة بدا أنها سخية، وقد استنتجت ذلك من الطريقة التي شكره بها السائق.

أخذت تنظر إليه بمشاعر مضطربة بحيث لم تعد تعرف نفسها. إنها مولعة بهذا الرجل، وهو سيحطم قلبها إذا لم تنه هذه العلاقة الآن. هذه الليلة. لقد غزا حياتها بتصميم بالغ حتى أنها راحت تتساءل عن السبب؟ بإمكانه أن يحصل على أيّ امرأة يريدها، عدا عن المرأة التي ملكت قلبه، سيلاين... فلماذا يهتم بها؟ ألأنها أوضحت له منذ البداية أنها لا تريد علاقة معه، أم أن السبب هو انجذابهما إلى بعضهما البعض؟.

توقف سير أفكارها وتركها وكأنها معلقة بين الأرض والسماء وهي تحدق إلى هذا الشخص الضخم أمامها. ثم حدثت نفسها بعقلانية صارمة بأنها لا تحبه... لا تحب فلين مورو.

لكن الأوان فات الآن. والحقيقة التي حاولت إنكارها بدون وعي منها، في الأسابيع الماضية، ظهرت إلى العلن. لم تكن تعي اليأس الذي جعل لون عينيها الزرقاوين داكناً. كل ما استطاعت التفكير فيه هو أن عليها ألاّ تفضح نفسها بكلمة أو إشارة.

ـ هل كدّرك؟ ماذا قال لك؟

ها هو أمامها مرة أخرى ووجهه الوسيم غير باسم فيما راح يتأمل ملامحها الشاحبة.

ـ من؟ ماذا؟

بذلت جهداً بالغاً لتتمالك أعصابها: «لا. لا شيء... في الحقيقة. أخبرني فقط أنه انفصل عن تامارا... إنه يريد...»

فقاطعها بجفاء: «أظنني أعرف ما يريد. وأنت أخبرته أن يذهب ليصطاد في مكان آخر. أليس كذلك؟»

ـ تعبيري كان مختلفاً، لكن المعنى واحد. نعم.

ـ لن تندمي على ذلك.

لا، لن تندم! ليس مع دين. نادته: «فلين...»

لفظت اسمه برقّة وأنوثة فائقتين وهي ترتجف. عليها أن تبدو أكثر تحكماً في نفسها. أخذت نفساً عميقاً فأصبح صوتها أكثر ثباتاً وهي تقول: «فلين... علينا أن نتحدث. أعني عنّا».

النوى حاجباه وقال بابتسامة جذابة: «هل ثمة «عنّا» وأنا لا أعلم؟»

ـ أرجوك يا فلين.

نبرة صوتها جمّدت ابتسامته، فأمال رأسه ونظر إليها متأملاً قبل أن يقول: «لنتحدث إذاً في الداخل. الجوّ هنا بارد جداً والرياح عاصفة بحيث لا يمكننا معالجة مواضيع الموت والحياة».

أصرّ فلين على إدخال مشترياتها إلى المطبخ قبل أن يعود إلى غرفة الجلوس حيث كانت ماريغولد قد أشعلت النار في المدفأة لتوّها.

كان يرتدي معطفاً كبيراً مفتوحاً فوق بذلة رمادية غالية الثمن، فبدا حقاً ذلك الجراح اللامع، المسيطر، البالغ الحيوية. شبك ذراعيه فوق صدره واستند إلى الجدار وهو يتأملها بعينين لا تطرفان: «فلنبدأ إذن».

أرجوك يا الله، دعني أجتاز هذا الحوار من دون أن أنفجر في البكاء أو أذلّ نفسي بطريقة أخرى!

أخذت ماريغولد تدعو الله بلهفة قبل أن تقول متصلبة: «أظن أن علينا

أن نتوقف عن رؤية بعضنا البعض فترة».

ونهضت من حيث كانت راكعة أمام النار ثم جلست على الأريكة.

ـ لماذا؟

ـ لماذا؟

حسناً، عليه طبعاً أن يطرح هذا السؤال، كما حدثت نفسها باستياء. فهو يتوقع أن تعطيه سبباً معقولاً لذلك. فقالت له: «لأنني لست مستعدة لإقامة علاقة بهذه السرعة بعد انهاء خطوبتي».

ـ ما هو السبب الحقيقي؟ إن قولك هذا غير مقبول.

لم تجب على الفور فضاقت عيناه: «أريد الحقيقة يا ماريغولد. وسأعرف إذا ما كذبت عليّ».

ـ أنا... أنا لست مثل نسائك الأخريات.

ألقى عليها نظرة صارمة: «بعض الرجال يشعرون بالغرور لدى مقارنتهم بالسلطان الذي يملك الكثير من النساء في حريمه، إلا أنني لست واحداً منهم. لم أكن أعلم أن لدي «نساء» بالجمع».

ـ أنت تعلم ما أعنيه.

ـ لا، يا ماريغولد أنا لا أعلم ما تعنينه. إذا كنت تلمحين إلى أنني أتصرّف في حياتي كالثور الذي أُطلق في حقل للأبقار...

فشعرت بصدمة حقيقية: «فلين!»

ـ الحقيقة من فضلك.

ـ أنت... أنت في الثامنة والثلاثين من العمر ومعتاد على معاشرة النساء.

لم تصدّق مدى التزمت الذي ظهر في صوتها، وكذلك فلين على ما يبدو، إذ أجاب ببرودة: «ماريغولد. ليس لديك أدنى فكرة عمّا اعتدته في علاقاتي. والآن، إذا كانت هذه هي طريقتك في سؤالي عما إذا كان لدي علاقات في الماضي، فجوابي هو نعم. وكما قلت أنت منذ لحظات ومن دون لباقة، أنا رجل ناضج، ولست غلاماً. على أيّ حال لم أطلق لنفسي العنان

قط في أيّ سلوك، كما لم آخذ إلى سريري امرأة بالرغم عنها».

إنها تصدق ذلك بكل تأكيد. وحدّقت إليه بتعاسة. لا شك أنهن كن يقفن بالصف من أجله منذ تركته سيلاين بكل حماقة: «الأمر هو...».

ـ آه، ليس ذلك الشيء مرة أخرى... أرجوك.

نبرة السخرية في صوته كانت القشة الأخيرة، لكنها أفادتها إذ قوّت عزيمتها. لا بأس، إنه يريد الحقيقة وسيحصل عليها حتماً!

ـ لا أريد أن أكون إحدى النساء اللاتي يدخلن ويخرجن من حياتك. هذا كل ما في الأمر. هذا النوع من الحياة قد يناسب تماماً بعض النساء، لكنه لا ينجح معي. قد تعتبر ما أقوله كلاماً قديماً، لكنني أريد أن أعلم إن كان هناك على الأقل فرصة لشيء دائم في المستقبل، إذا نجحت الأمور بيننا. فأنت... أنت كتاب مقفل».

ـ أظن أن التعبير الأنسب هو حالة تُفتح وتقفل.

حملقت فيه. إنه يعلم بالضبط ماذا تريد. فهي لا تريد أن تكون امرأة يريدها لفترة قصيرة حتى تفتنه امرأة أخرى وتثير تحديه. لو استسلمت له منذ البداية لربما أصبحت الآن خارج حياته، وهي لا تستطيع أن تواجه ذلك. إنها تحبه وإذا ما سلمته قلبها، فلن تتحمل أبداً هجره لها.

عندما عرفت فلين، أدركت أن دين لم يكن مناسباً لها، رغم أنها لم تعترف بذلك. منذ اليوم الأول الذي عرفت فيه فلين، لم يعد لدين أهمية لديها. وهكذا أصبح الأمر واضحاً بحقيقته المخيفة. وفجأة تملكتها رغبة مدّمرة في الانفجار بالبكاء، لكنها سيطرت على نفسها.

ـ ماريغولد، إذا كنت مخطئاً فصححي لي الخطأ. أليس أنت من ألحّ على أن نبقى متباعدين؟ مجرد صديقين؟

ارتجفت الكلمة على فمها. ورغم أنها كانت واثقة من أنها لم تفضح نفسها، إلا أنها كانت واعية إلى عينيه الفضيتين.

وقال برقة: «تعالي».

ـ لا، أريدك أن تدرك أنه لا يمكننا الاستمرار بهذا الشكل. نحن نعيش

حياتين مختلفتين. نحن مختلفان. لا شيء يجمع بيننا. والأفضل أن ننهي كل شيء بيننا الآن...

سار إليها ووصل بخطوتين، وانتزعها عن الأريكة ليضمها بين ذراعيه... وفجأة، أظهر لها مشاعر محمومة لم ترها منه من قبل.

وجدت نفسها تتشبث به. وخلال ثوانٍ كان كل منهما قد ضاع في الآخر.

جاء صوته منخفضاً وهو يتمتم: «أنت تجعلينني مجنوناً بك. هل تدركين هذا؟».

كان جوابها أن ضغطت بيديها على صدره الصلب، فيما أردف: «أريد أن نكون دوماً معاً، لا يبقى مكان لشيء عدانا نحن الاثنين في ذهنك وقلبك. أريد أن أتزوجك...».

تراقصت هذه الكلمات في الجوّ، وارتعشت كقطرات المطر البلّورية العالقة في خيوط شبكة العنكبوت الواهية.

ـ ماذا؟

ابتعدت عنه قليلاً وهي تحدق إليه ذاهلة: «ماذا قلت؟».

ـ أريدك أن تكوني زوجتي.

رقّت نظراته الصارمة فانحبست أنفاسها في حلقها فيما أضاف: «أنا أوافقك الرأيّ على أننا لا يمكن أن نستمر بهذا الشكل، لا سيّما أن ذلك يوشك على أن يفقدني عقلي. تقولين إن حياتينا مختلفتان، فلنعالج إذن ذلك فتصبح حياتنا واحدة معاً. يمكنك أن تتابعي عملك، كما يمكنك أن تجعلي الكوخ استديو لعملك إذا شئت، حيث يمكنك العمل بهدوء من دون أن يقاطعك أحد حين أكون في لندن. وعندما أحضر إلى البيت سنمضي من الوقت معاً قدر ما نستطيع».

لقد فكر في كل شيء، كما خطر لماريغولد. لا بد أنه يفكر بهذا الأمر منذ بعض الوقت.

تمتمت بضعف: «ولكن... لكنك لم تقل شيئاً من قبل».

ـ أنت أوضحت تماماً أن عليّ أن أتقرب منك بكل رفق وأنا تفهمت الأمر بعد كل ما عانيته. لكنك على صواب في شيء واحد، يا ماريغولد... أنا في الثامنة والثلاثين من العمر. كان عليّ أن أخبرك بنيتي بالزواج منك بعد أيام من تعارفنا. أعترف بذلك. لكنك لم تكوني مستعدة لهذا الأمر...

ولمس جبهتها بخفة بإصبعه.

ـ فلين...

وتلاشى صوتها وهي تنظر إلى عينيه المضيئتين اللتين أصبحتا كحبتي لؤلؤ لامعتين: «هل أنت... واثق؟».

ـ كما قلت أنت، أمضيت وقتاً كافياً لأعرف ماذا أريد ومن أريد. لكنني لم أطلب من امرأة قط أن تتزوجني.

ما عدا سيلاين. خطرت لها هذه الفكرة لحظة قبل أن تدفعها بعيداً. لا يمكنها أن تحلل هذا الرجل المعقد البالغ الذكاء، لكن ها هو يقدم لها أكثر مما تحلم به، كما أنها تحبه. وفي الواقع، إنها تحبه إلى حد أنها لا تعلم كيف كانت ستعيش من دونه. أما الآن فلم تعد مضطرة لذلك.

وسألها بهدوء: «ما هو جوابك؟ فكري جيداً قبل أن تتكلمي. ولكن ثمة أمر مؤكد، وهو أنني لن أدعك تخرجيني من حياتك، كما أن صبري فرغ. وأريد أن أذيع بياناً على كل تافه مدّع، مثل خطيبك السابق، أنك لي».

بيان للرجال الآخرين؟ هل هو مجنون؟ هل يتصور حقاً أنهم يقفون أمام بابها بالصف؟ فقالت برقة وفمها يرتعش: «يبدو وكأن لا خيار سوى أن أقول نعم. لكنني لا أفهم...».

قطع كلامها بعناق طويل محموم ولم يتركها إلا بعد أن أخذت ترتجف: «ما الذي لا تفهمينه؟».

ـ لماذا تريدني؟

سألته هذا بصدق مؤثر، فلامس وجنتيها برفق بالغ: «إذن، سأجعلك تفهمين».

قال هذا بصوت أبح وعيناه تحدثانها بأكثر مما يمكن للكلمات أن تقوله ثم أضاف: «لكن الوقت ليس مناسباً الآن».

نظر إلى ساعته وتابع يقول: «تباً، عليّ أن أذهب. كان في نيتي أن أمر فقط لزيارة قصيرة لأوضح لك أمراً، لكن لم يعد لديّ وقت الآن. عليّ أن أذهب. سأتصل بك هاتفياً، اتفقنا؟ سأتصل في الصباح قبل ذهابك إلى العمل. لا بأس».

ـ نعم، لا بأس.

وتملكها الارتباك، لكنه بدأ يسير نحو الباب وقد بدت عليه اللهفة للخروج: «هل أنت ذاهب الآن إلى المستشفى؟».

سألته وهي تعلم الجواب مسبقاً. فقد لاحظت من قبل التعبير الذي ارتسم على وجهه عندما كان مشغولاً جداً بحالة ذلك الصبي... لا بد أن لديه حالة طارئة، وكأن جزءاً منه أصبح الآن في غرفة العمليات.

ـ نعم.

عانقها مرة أخرى طويلاً وبعنف: «لكنني سأتصل بك صباحاً».

هذا يعني أنه سيبقى على الأرجح في غرفة العمليات حتى ساعات الصباح الأولى. لا بد أن الحالة خطيرة ولا يمكن لها أن تنتظر، ولا شك أن وضع المريض خطير الآن ليجري فلين العملية.

قالت له بسرعة لتسهل عليه الأمر: «إذهب».

ثم، ولأول مرة، وقفت على رؤوس أصابعها لتعانقه، فضمها إليه مرة أخرى قبل أن يخرج وهو يقفل معطفه.

بعد ذهابه ظلت لدقيقة كاملة مستندة إلى الباب الأمامي وهي تنظر بذهول إلى ردهتها الصغيرة. كان طلب فلين الزواج منها الأمر الأكثر غرابة وما زالت لا تستطيع استيعابه.

ماريغولد مورو... طرفت بعينيها ووضعت يدها على قلبها الذي راح يخفق بعنف. فلين يريدها أن تكون زوجته.

سارت إلى المطبخ حيث أعدت لنفسها فنجان قهوة حملته إلى غرفة

الجلوس. لم تستطع أن تأكل شيئاً... ليس الآن، فقد شعرت بإثارة بالغة. آه، فلين... فلين... وابتدأت ضخامة الأمر تتضح لها. الزواج! بدا الأمر في غاية البساطة حين كان هنا يعانقها، أما الآن فراحت تتساءل لما طلب منها أن تتزوجه في هذه الليلة بالذات. أتراها أرغمته على عرض الزواج عليها بهذا الموقف الذي اتخذته الليلة، فضلاً عن سلوكها معه في الأشهر الأخيرة؟ إذا كان الأمر كذلك فهذا نوع من الإبتزاز، مع أنها لم تفكر في ذلك لحظة واحدة. في الواقع لم يخطر ببالها قط أن فلين سيطلب منها يوماً أن تصبح زوجته.

أبعدت شعرها عن وجهها المتوهج، ثم أغمضت عينيها بشدة لحظة أو اثنتين وهي تتصارع مع أفكارها الصاخبة المضطربة، وكلما زاد صراعها زادت شكوكها القديمة ومخاوفها.

هل قال لها فلين إنه يحبها؟ عادت تفكر في تلك الدقائق المشحونة التي عاشاها، وذهنها يبحث بلهفة عما يطمئنه. لا، لم يقل. لكن الطريقة التي نظر بها إليها أعلنت ذلك بوضوح، أليس كذلك؟

أو... وسألها صوت خفي في أعماقها متفحصاً... هل لأنها كانت تريد... أو تشعر بحاجة إلى أن تصدق، رأت ذلك إعلاناً؟

وبعد دقائق أخذ رأسها يدور. سكبت لنفسها كوباً آخر من القهوة السوداء والثقيلة، لكن ذلك لم يهدىء روعها أو يطمئنها.

كانت بحاجة إلى إبعاد تفكيرها عن الأمر لعدة دقائق، فمدت يدها إلى التلفزيون. وعندما ظهرت الصورة على الشاشة الصغيرة استندت إلى الوسائد الناعمة خلفها على الأريكة.

لم تستطع أن تتذكر تفاصيل البرنامج المعروض... لا بد أنها كانت في شبه غيبوبة أثناء عرضه... لكن حواسها تنبّهت عند تقديم الفقرة التالية: (الليلة موعدنا مع مناسبة في عالم الأزياء...) ومضى الحديث بهذا الشكل لحظة أو أكثر، لكن ماريغولد ما لبثت أن جلست منتصبة عندما قال المذيع: (من القادمات عصر هذا اليوم سيلاين جينيت التي أعلنت حديثاً تقاعدها).

ثم عرضت بشكل مختصر صورة لسيلاين الباسمة وهي تخرج من المطار. لكن الرجل الطويل الأسمر الذي كان يحيط خصرها بذراعه هو الذي لفت نظر ماريغولد.

فلين! رفعت ماريغولد يديها تغطي فمها، وضغطتهما بشدة عليه وهي تحدّق، من دون أن تفهم، إلى الشاشة قبل أن تتغير الصورة.

عصر هذا اليوم، هذا ما قاله المذيع. كانت سيلاين هنا، في لندن ومع فلين.

ـ لا، آه، لا.

بدا صوتها كالأنين، وسمعت ماريغولد نفسها بشيء من الإشمئزاز لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال الألم والصدمة اللذين تملكاها.

هل كان فلين هناك الليلة؟ مع سيلاين في هذا المهرجان؟ وأقفلت التلفزيون ورأسها يدور. كانت في الواقع قد شجعته ليتركها، ظناً منها أنه ذاهب إلى المستشفى.

شعرت بأنها تكاد تتقيأ ما جعلها تتنفس بعمق مرات عدة لتسيطر على الغثيان الذي أصابها. كيف يمكنه أن يفعل ذلك بها؟ أن يكذب عليها بهذا الشكل؟ كيف يمكنه أن يعرض عليها الزواج ثم يذهب مباشرة إلى امرأة أخرى، إلى سيلاين؟ وأخذت تسير جيئة وذهاباً وهي تحاول أن تفكر في ما عليها أن تفعله. ها هو التاريخ يعيد نفسه كما يبدو. هل الخطأ فيها هي؟ لا بد أن الأمر كذلك، وأن فيها ما يجعل الرجال يظنونها غبية.

ولكن... أليس ثمة احتمال بأن تكون قد أساءت فهم الأمر؟ ربما... ربما ذهب فلين لاستقبال سيلاين في المطار نظراً لصداقتهما القديمة. هذا ممكن.

أدركت أنها كالغريق تتمسك بقشة... بأي شيء مهما كان واهياً، ولكنها لم تستطع منع نفسها من ذلك. ماذا لو أن فلين أخبرها الحقيقة وكان في المستشفى الليلة؟ إذا استقبلها في المطار عصر اليوم، فلا يعني هذا بالضرورة أنه سيبقى معها خلال الاحتفال في المساء.

إنها تكرهه... إنها تكرهه حقاً.

نظرت إلى رقم هاتف شقته في لندن، ثم أدارته ببطء. على الطرف الآخر لم تسمع سوى المجيب الآلي. لكنها توقعت ذلك فراحت تتكلم بوضوح واختصار. (فلين؟ أنا ماريغولد. أرجو أن تكون قد أمضيت سهرة ممتعة مع سيلاين. آه، ثمة أمر آخر. أنا لن أتزوجك حتى لو كنت آخر رجل في العالم. ولمعلوماتك، أنا لم أثق بك قط، ولهذا لا تظن أنك خدعتني ولو لحظة واحدة. لا أريد أن أراك أو أسمع عنك شيئاً مرة أخرى. وداعاً.)

وضعت السماعة، وأزاحت خصلة شعر عن عينيها، ثم انفجرت بالبكاء.

***

٩ ـ اللعبة الخطرة

لم تعلم ماريغولد في أي وقت متأخر من الليل تمكنت من أن تستغرق في النوم وذلك بعد أن بكت حتى جفت دموعها. لا شك أن ذلك حصل بعد منتصف الليل، فقد كانت مرهقة عقلياً، وجسدياً، ونفسياً. ومع ذلك بقيت تتقلب مدة بدت لها دهراً قبل أن تستغرق في نوم مزعج.

راح جرس الهاتف يرن ليعيدها إلى اليقظة، لكن الأمر استغرق بعض الوقت إلى أن استيقظت أخيراً. جلست في سريرها ثم مدت يدها إلى السماعة وهي تحاول أن تركز عينيها الغائمتين على المنبّه قرب السرير. إنها الخامسة صباحاً!

عندما نطق صوت رجل غاضب باسمها بعنف، عادت الصور إلى ذهنها وتذكرت فلين وسيلاين!

ـ ما الذي تعنيه الرسالة على المجيب الآلي؟

بدا صوته من الغضب كما لم تسمعه قط من قبل. وحاولت بلهفة أن تستجمع أفكارها فردّت: «لا بد أن الأمر واضح تماماً».

استطاعت أخيراً أن تتكلم بشيء من الذكاء، فيما قلبها يكاد يقفز إلى حلقها لسماع صوته.

ـ هل تعلمين بأمر سيلاين؟

طرفت بعينيها غير قادرة على أن تصدق أذنيها. حتى إنه لا يحاول إنكار الأمر! وجعلها هذا أكثر جنوناً من ذي قبل، فقالت بصوت بارد كالثلج: «مرة أخرى أظن أنّ الأمر واضح».

فزمجر بعنف: «ما هذا الكلام إذن عن قضاء سهرة ممتعة وأنني أخدعك؟».

لم تسمعه قط من قبل يتحدث بهذه اللهجة القاسية حتى يوم راح يعنّفها ظناً منه أنها إيما. ويبدو أن افتضاح أمره بهذا الشكل لم يعجبه فقالت تذكره بحزم: «أنا قلت إنك لم تخدعني».

فقال بخشونة: «كما أنك قلت إنك لا تريدين أن تريني أو تسمعي عني شيئاً مرة أخرى، وذلك بعد ساعات من وعدك لي بأن تتزوجيني. ما الأمر إذاً؟ ولا تقولي إن الأمر واضح لأنه ليس كذلك، أنا مستيقظ منذ أربع وعشرين ساعة وليس لدي مزاج للألاعيب، يا ماريغولد».

ألاعيب؟ أتراه يظن هذه لعبة منها؟ قالت وهي تحاول منع صوتها من الارتجاف: «قلت لي إنك ستكون في المستشفى الليلة الماضية».

ـ حسناً؟

ـ ورأيت في التلفزيون سيلاين تصل إلى لندن، وكنت أنت معها. وبرتا قالت إنك كنت معها الليلة الماضية.

حسناً، قالت برتا ذلك بطريقة ما.

ـ إنتظري لحظة، هل قلت إنك تعلمين بأمر سيلاين؟

ردّت ماريغولد بلهجة لاذعة مرة: «نعم. كان هناك برنامج عن الأزياء».

ـ وأنت تظنين أن سيلاين شاركت في البرنامج الليلة الماضية؟

وسكت لحظة صغيرة ثم قال بصوت أصبح ناعماً بارداً: «اتصلت ببرتا لتعلمي إن كنت مع سيلاين أثناء ذلك؟ هل هذا صحيح؟».

ـ نعم.

شعرت بأن ثمة خطأ ما. وتملكها إحساس بقرب وقوع كارثة.

ـ كان بإمكانك أن تتصلي بي على هاتفي الخلوي أو تتصلي بالمستشفى إذا أردت أن تتحدثي إلي بشكل مباشر، يا ماريغولد.

ـ لكنك... لكنك لم تكن في المستشفى.

سألها بنفس الصوت الهادىء الذي أرسل قشعريرة توقع المتاعب في جسدها كله: «هل سألت قبل أن تتحدّثي إلى برتا؟».

ـ لا.

ـ لم أكن أستحق منك اتصالاً هاتفياً إذن.

ـ هذا ليس صحيحاً.

قالت هذا باحتجاج خافت فقال: «تباً لما تقولينه».

ـ ظننت...

ـ أنا أعرف ما ظننت يا ماريغولد. كنت واثقة من أنني أضيّع الوقت مع سيلاين الليلة الماضية وهكذا اتصلت ببرتا للتحقق من الأمر. تباً لي كم كنت أحمق! ظننت أن بإمكاني أن أجعلك تحبينني كما أحبك، لكنك لم تمنحيني فرصة أبداً، عدا عن التجاذب بيننا لا أظن أنك تكنين لي حتى شعوراً بالمودة.

ـ فلين هذا غير صحيح.

إنكارها الصادق لم يؤثر فيه على الإطلاق: «أنت صدقت أنني أعرض عليك الزواج ثم أخرج لأمضي الليلة مع امرأة أخرى».

الازدراء الواضح في صوته أصاب ماريغولد في الصميم، فهو يقول الحقيقة. ماذا يمكنها أن تقول وماذا يمكنها أن تفعل لتصحح ما فعلته؟ لقد صدقت الآن أن فلين كان في المستشفى الليلة الماضية ولم يكن مع سيلاين.

ثم أثبت خطأها عندما قال بمرارة: «أنا كنت مع سيلاين الليلة الماضية يا ماريغولد وقد تركتها في الرابعة هذا الصباح. إنها في قسم «العناية الفائقة» بعد أن أجريت لها عملية إزالة ورم من مخها بحجم كرة الغولف. وعندما تستعيد وعيها، هذا إذا استعادت وعيها، قد تضطر لأن تتعلم كيف تسير وتتكلم مرة أخرى. وربما تصاب بالعمى أو أسوأ من ذلك. كان يجب أن تُجرى لها هذه العملية قبل أسابيع، لكن أحد أدعياء الطب، الذي راجعته، لم ير أياً من دلائل الورم فقال لها إنها تعاني من مرض «الشقيقة» بسبب الإجهاد».

وجمدت ماريغولد من الرعب.

ـ جاءت لتراني أمس لأخذ رأيي. وأدركت أن عليّ أن أجري العملية على الفور وذلك بعد الفحوصات التي أجريتها عند العصر. لكن لم يعلم أي منا مدى سوء حالتها إلا بعد أن فتحنا الجمجمة.

ـ فلين... أنا آسفة للغاية. لا أدري ماذا أقول.

وكان الندم والخزي يخنقان صوتها.

ـ لم يبق ما يُقال. كنت أخدع نفسي طوال الوقت وأقنعها بأن هناك شيئاً حقيقياً بيننا.

ـ لا، أرجوك. إصغ إليّ. أنا لم أفهم...

ـ لا، أنت لم تفهمي. لكنني لست مهماً بنظرك لتبذلي أي جهد للفهم، أليس كذلك؟ إذا ظننت أنني من الذين يتصرفون بهذا الشكل، إذن ليس هناك أمل. حاولت أن أريك شخصيتي الحقيقية في الأشهر الماضية يا ماريغولد. أردتك أن تعرفيني من الداخل. لست رجلاً كاملاً، لكنني أيضاً لست رجلاً نافهاً كما تظنين.

ـ لم أعتبرك كذلك، يا فلين. لم أعتبرك كذلك.

وراحت تجهش بالبكاء لكن يبدو أن هذا أيضاً لم يؤثر فيه.

ـ سيكون عليك أن تثقي بشخص ما، في وقت ما يا ماريغولد، لكنني لن أكون هذا الشخص.

إنه يعني ذلك، لقد فقدته. وتملكها الغثيان.

ـ وداعاً، يا ماريغولد.

واستقرت السماعة مكانها بهدوء بالغ.

* * *

كانت الأيام القليلة التالية هي الأسوأ في حياة ماريغولد. فقد أمضت الساعات وهي تعمل بصورة آلية من دون توقف. لكن، عند عودتها إلى بيتها، كانت تغرق في وحشة شقتها، ولا تجد مسكّناً لألم الشعور بالذنب وتقريع الذات المرّ.

حاولت أن ترفع السماعة لتتصل بفلين مراراً كل ليلة لكنها كانت تعود دوماً فتضعها من دون أن تجري الاتصال. ماذا يمكنها أن تقول، على أيّ حال؟ لقد تخلّت عنه بأسوأ طريقة ممكنة، بحيث أصبحت العودة إلى الوراء مستحيلة. حتى إنها لم تمنحه الفرصة للدفاع عن نفسه قبل أن تتصرف بذلك الشكل. لا بد أنه عاد في ذلك الوقت إلى بيته من المستشفى مرهقاً ومستنزفاً عقلياً وعاطفياً، وإذا به يتلقى التحية من رسالتها الهاتفية تلك. فإذا قالت الآن إنها تحبه لن يصدقها أبداً، فهي، بكل تأكيد، لم تتصرف كامرأة محبة.

لقد استحقت كراهيته واحتقاره، كما استحقت كل الألم والندم اللذين تعاني منهما.

موجة اتهام الذات هذه استمرت حتى نهاية الأسبوع، إلا أن أمرين حدثا وأخرجا ماريغولد من يأسها. وكان الأول مسبباً للثاني.

عند التاسعة والنصف من صباح السبت، وكان يوماً بارداً لكن الجو صاح، سمعت ماريغولد قرعاً على بابها فسارت إليه لتفتحه، وإذا بها تجد دين عند العتبة وفي يده باقة زهور ضخمة. وقبل أن تقول شيئاً بادرها بسرعة: «جئت لأسألك إن كان بإمكاننا أن نبقى صديقين، صديقين فقط. لم أكذب عليك عندما قلت لك إنني افتقدتك، يا «دي»، ولا أريد لعلاقتنا أن تنتهي بهذا الشكل. أعلم أنك أصبحت على علاقة بشخص آخر وأنا لا ألومك، لكنني أحب أن نبقى على اتصال مع ببعضنا البعض، حيث نلتقي معاً لنشرب القهوة ونتحدث كصديقين. ما رأيك؟».

نظرت إليه ذاهلة وهي ترى في نظراته الرغبة الصادقة في الصلح. وإذا بها تنفجر في البكاء، ما أدهشهما معاً.

بعد أن شربا القهوة وأكلا بعض الخبز المحمص، وجدت ماريغولد نفسها في وضع غير عادي؛ إذ راحت تبكي، فيما أخذ خطيبها السابق يشجعها على ملاحقة رجل آخر: «لو وجدت بصيص أمل ضئيلاً في أن نعود إلى بعضنا البعض لما قلت هذا. ولكن ليس هناك أي فرصة، أليس كذلك؟»

هزت ماريغولد رأسها فأضاف: «كما أنني أشعر بشيء من المسؤولية

www.elromancia.com

لعدم ثقتك بفلين. لو لم أتصرف بذلك الشكل المستهتر، لما فقدت أنت ثقتك بالرجال هكذا».

بالرغم من اعتراف دين بذلك، إلا أنه توقع منها أن تنكر أنه هو الملوم.

لكنها قالت بحزم: «هذا حسن، ينبغي عليك هذا».

ـ نعم، هذا صحيح.

وأنهى قهوته. وعاد يقول: «اذهبي وقابليه. تحدّثي إليه وجهاً لوجه. أخبريه بشعورك حتى لو اقتضى الأمر أن تعفري وجهك بالتراب، وإلا ستمضين حياتك وأنت تتساءلين إن كانت الأمور ستصطلح بينكما لو أنك حاولت ذلك على الأقل».

حدقت ماريغولد إليه. لقد جاءت التعزية من أغرب الطرق ومن مصدر لم تتوقعه أبداً.

وعندما خرج دين أخذت حماماً ساخناً، وبقيت لفترة طويلة في الماء المعطر بينما راحت تفكر في كل ما قالاه. إذا استطاع شخص سطحي وأناني مثل دين، أن يصحح مسار العلاقة بينهما كما فعل هذا الصباح، من المؤكد أن بإمكانها القيام بشيء مماثل مع فلين. حسناً، قد يحقّرها فلين وينزلها إلى أسفل السافلين بلسانه الساخر. ولكن ماذا يهم؟ إذا حدث ذلك فهي تستحقه. لن يجديها التمسك بالكرامة نفعاً بعد التعاسة التي عانتها في الأيام الأخيرة. ستفعل أي شيء... أي شيء لكي تريه مدى أسفها.

أثناء ذلك الاتصال الهاتفي الأخير العاصف، قال إنه يحبها وهي صدقته. أتراه ما زال يحبها؟ أتراها لم تدمّر كل شيء؟ حتى لو كانت سيلاين حبه الأول، فهذا لم يعد يهمها. لقد عرض عليها هي الزواج منذ عدة ليالٍ، ما يعني أنه يخطط لمستقبلهما معاً.

اتصلت ماريغولد بالمستشفى مرات عدة لتسأل عن سيلاين، لكنها كانت تتلقى في كل مرة الجواب المعتاد: (حالة الآنسة جينيت مستقرة بالقدر المتوقع لها). وفي اليومين الماضيين لم تعد تتصل على الإطلاق. لكن خطرت لها فكرة ذات مرة وهي خارجة من الحمام، فرفعت سماعة الهاتف وأدارت

رقم فلين في «شروبشاير» وعندما سمعت صوت برتا أخذت نفساً عميقاً: «برتا؟ أنا ماريغولد. أتصل لأسأل عن حالة سيلاين».

ـ آه، مرحباً يا عزيزتي.

أدركت من صوت برتا أنها لا تعرف شيئاً عن انفصالهما، وبدا ذلك واضحاً عندما سألتها برتا بحيرة: «ولكن لماذا لا تسألينه بنفسك يا عزيزتي؟».

ـ إنه مشغول للغاية.

ـ حسناً، أنت لست بحاجة إلى أن تخبريني! سيصاب فلين بالمرض إذا ما استمر على هذا الحال. لكن حالة سيلاين الآن تتحسن بشكل يبعث على الأمل بحيث يمكنه أن يرتاح قليلاً. إنها تتحسن شيئاً فشيئاً، يا عزيزتي. تمكنت من البقاء مستيقظة لمدة أطول بالأمس، كما أنها استعادت قدرتها على الكلام تقريباً. من حسن الحظ أن نظرها لم يتأثر، أليس كذلك؟ أظن أنّ هذا ما كان يقلق السيد مورو أكثر من أيّ شيء آخر.

وضعت ماريغولد السماعة بعد ذلك بدقائق، وهي ترتجف من الإثارة. حالة سيلاين لا بأس بها، وحسب قول برتا، فلين واثق من أنه أزال الورم كله وهي تتحسن يوماً بعد يوم.

ستذهب إلى شقته حالما ترتدي ثيابها. عليها أن تراه الآن، اليوم. عليها أن تجعله يفهم أنها تحبه. تحبه حقاً، وستترك له القرار بعد ذلك. فإذا لم يستطع أن يصفح عنها... ولم تجرؤ على التفكير في ذلك خوفاً من العودة إلى ما كانت عليه في الأيام الأخيرة. عليها أن تتحلى بالشجاعة الآن.

مشطت شعرها الحريري اللامع الذي يصل إلى كتفيها، ووقفت فترة تتأمل محتويات خزانة ملابسها. عليها أن تبدو أنيقة ولكن ليس إلى حد كبير. جذابة بالغة الأنوثة ولكن ليس بوضوح بالغ.

وأخيراً، اختارت بنطلوناً أنيقاً بنّي اللون مع حذائها البني وكنزة من الكشمير بيضاء غالية الثمن. فهذه الكنزة تجعلها دوماً تشعر بالرضا عن نفسها. بعدئذ، زينت وجهها فقط بكريم الأساس لكي تخفي شحوبها،

ووضعت الكحل حول عينيها.

لم يكن بإمكانها أن تنافس سيلاين من حيث الجمال، كما أخذت تفكر برزانة، ولن تحاول. هذا ما هي عليه، مئة وستون سنتيمتراً من الطول، بنية الشعر زرقاء العينين وغبية إلى أقصى حد كما أثبتت تصرفاتها منذ أيام. هل سيقبل فلين أن يكلمها؟ أغمضت عينيها بشدة وطلبت من الله أن يمدّها بالقوة.

***

توقفت السيارة أمام المستشفى الخاص في بقعة من الأرض رائعة الجمال بخضرتها وزينتها. تنفست ماريغولد بعمق مرات عدة لكي تتمكن من التحكم بضربات قلبها العنيفة. كانت قد ذهبت إلى شقة فلين أولاً، وعندما لم تسمع جواباً، افترضت أنه في المستشفى. من المحتمل ألا يكون هنا الآن، كما ذكرت نفسها متوترة الأعصاب، لكن لا بد أن يأتي عاجلاً أم آجلاً.

بعد أن دفعت أجرة السيارة، نصبت قامتها تحت سترتها البنية اللون، ثم سارت مباشرة إلى الباب الخارجي الذي انفتح تلقائياً عند اقترابها منه. سارت إلى حيث كانت موظفة الاستقبال الرائعة الأناقة تنتظر بابتسامة مشرقة لتقول بعذوبة: «هل يمكنني أن أساعدك؟»

فقالت ماريغولد بحزم: «أود أن أتكلم إلى السيد مورو... السيد فلين مورو».

ـ هل لديك موعد؟

ـ لا. ليس لدي موعد؟

ـ إذن، أنا حقاً آسفة للغاية ولكن...

فقالت ماريغولد بسرعة: «أنا لست من مرضى السيد مورو. أنا صديقة له. كما أني واثقة من أنه سيرغب في رؤيتي عندما يعلم أنني هنا».

أصبحت تكذب بشكل أفضل الآن، كما فكرت ماريغولد بشيء من التوتر. لأن الموظفة صدّقت هذه الكذبة بسهولة.

قالت موظفة الإستقبال: «سكرتيرة السيد مورو متغيبة اليوم، لكنني سأرى إن كنت أستطيع أن أتصل به. في الحقيقة لست واثقة مما إذا كان في المستشفى».

آه، نعم... كما أخذت ماريغولد تفكر غير مصدقة. إذا كان فلين يعتبرها كاذبة فاشلة، فعليه أن يستمع إلى هذه المرأة.

ـ من يريده؟

ـ الآنسة فلاور.

ـ تفضلي بالجلوس يا آنسة فلاور وسأرى ما يمكنني القيام به.

وأشارت موظفة الإستقبال بيدها المطلية الأظافر نحو أرائك تبنية اللون بعيدة نوعاً ما، فلم يعد لدى ماريغولد من خيار سوى أن تبتسم بأدب وطاعة.

رأت المرأة تتكلم في الهاتف، لكنها كانت أبعد من أن تسمع ما تقوله، رغم أن عينيها اللوزيتين المثقلتين بالكحل نظرتا إلى ناحيتها أكثر من مرة. وعندما وضعت الموظفة السماعة، رن جرس هاتف آخر بجانبها فعادت تستغرق في حديث آخر.

نظرت ماريغولد حولها، محاولة ألا تظهر قلقها. قد لا تتمكن النقود من شراء الصحة لكنها تجعل المريض يحظى بعناية واهتمام فائقين في هذا المستشفى الفخم. كانت تعلم أن فلين يعمل أيضاً في مستشفى عام كما يعمل في هذا المستشفى الخاص، ولا بد أن المكانين يبدوان كعالمين مختلفين. وفجأة، جف حلقها ذعراً. ما كان لها أن تأتي! إنها غلطة كبرى. سيلاين ملائمة لهذا العالم أكثر منها بكثير. والآن، وتلك المرأة مريضة، لا بد أن فلين يأمل في أن يعودا إلى بعضهما البعض مرة أخرى.

ـ مرحباً ماريغولد.

لأول مرة في حياتها عرفت ما يكون عليه شعور المرء حين يتوقف قلبه عن الخفقان. سمعت ذلك الصوت العميق الهادىء من خلف كتفها اليسرى، فاستدارت بسرعة كادت أن تقع معها عن الأريكة، ثم قفزت

واقفة بطريقة أبعد ما تكون عن الهدوء: «فلين! أنا... أنا لم أسمعك».

أرجع إلى الخلف خصلة شاردة من شعره وهي إشارة بطيئة تدّل على أن جوّ الهدوء حوله كان متعمّداً: «قالت صوفيا إنك تسألين عني».

بدا رائعاً. إنه وسيم كما هو دوماً، وجاذبيته القوية تشهد بأنه خطر. لكن مسحة رمادية على بشرته السمراء كانت تنبىء عن إرهاق بالغ كما أن فمه لم يكن صارماً فقط بل متوتراً أيضاً. وخطرت ببالها فكرة مفاجئة فقالت بسرعة: «سيلاين؟ إنها بخير. قالت برتا إنها تتحسن».

ـ سيلاين بخير.

كان يرتدي قميصاً باهت الزرقة وقد دس يديه في جيبي بنطلونه، فيما تدّلت ربطة عنقه إلى أحد الجوانب، كعادتها غالباً. شعرت نحوه بفيض من الحب ما جعلها تشعر برغبة في البكاء. لكنها بدلاً من ذلك، سألته وهي ترتعش: «آسفة لأني أزعجتك هنا لكن كان عليّ أن أتحدث إليك... قالت موظفة الاستقبال إنها لا تدري إن كنت هنا أم لا».

هز كتفيه العريضتين: «كانت أياماً مرهقة. إزدحام السير كان خانقاً بينما أنا مجبر على الانتقال بين المستشفيين».

أومأت برأسها. هذا هو السبب إذن في ما يبدو عليه من إنهاك؟ مرت لحظة، لحظة جنونية تساءلت فيها عما إذا كان سبب هذا الإنهاك، تفكيره الدائم بها!

ضاقت عيناه قليلاً تتمهلان على شعرها الحريري لحظة قبل أن يرى بنطلونها الأنيق والكنزة الكشمير المحكمة على جسمها. فقال: «يبدو أنك في طريقك لتناول الغداء في مكان ما. هل من خدمة تريدينها مني؟».

مرت لحظة فكرت فيها بالهروب بسبب عدم اكتراثه وبرودته. لكن الطريقة التي كان يقف بها، ويداه منقبضتان ككرتين في جيبيه، جعلتها تثبت في مكانها ثم تقول بهدوء من دون أن يرتجف صوتها: «أنا لست خارجة لتناول الغداء، بل جئت لأراك».

ـ لماذا؟

إذا لم يكن الآن فلن يكون أبداً. فقالت بوضوح تام: «لكي أخبرك أنني أحبك».

ـ إذهبي إلى بيتك يا ماريغولد.

لكنها رأت ومضة حزن في عينيه ولمحة ألم في وجهه. فقالت: «ليس قبل أن أتأكد من أنك تفهم ما أشعر به. إذا تركتني وابتعدت عني الآن فسألحق بك. أنا لست خائفة من أن أسبب مشهداً عاطفياً غاضباً في المستشفى».

رأت عينيه تتسعان للحظة، ثم قال بخشونة: «هذه سخافة. ولكن إذا كنت مصرة فمن الأفضل أن تأتي إلى مكتبي. أنت هنا في مستشفى فهل عليّ أن أذكرك بذلك؟».

بدا مكتبه فخماً بطل على مروج خضراء وأشجار سامقة. لكن ماريغولد لم تكترث لتلك المناظر. أغلق فلين الباب، وسار مباشرة إلى مكتبه حيث جثم على حافته ثم أشار إليها بالجلوس على إحدى كراسي الزائرين أمامه. قال: «لديّ اجتماع بعد وقت قصير، ولذا يمكنني أن أمنحك خمس دقائق فقط».

كان صوتاً بارداً لرجل غريب... صوتاً من دون مشاعر.

تجاهلت المقعد ثم سارت مباشرة لتقف أمامه. كانت من القرب منه بحيث استطاعت أن ترى ظل لحيته النابتة، رغم أن الوقت كان منتصف النهار فقط. ومع أنه لم يحرك عضلة واحدة إلا أنها عرفت أنه متوتر وقالت بلطف: «أنت بحاجة إلى شفرة جديدة للحلاقة».

تبع كلماتها صمت أخذ يهتز ببطء، وكأنما الجو مشحون بتيار كهربائي. بقي فلين جامداً تماماً وهو يقول: «أنا مستيقظ منذ الثانية صباحاً. ظهرت مضاعفات لدى أحد المرضى فجئت على عجل. لدي آلة حلاقة كهربائية في مكتبي، سأستعملها في ما بعد».

نظرت إلى عينيه برقة، وقالت بهدوء: «فلين، إصفح عني، أرجوك. أنا أحبك من أعماق قلبي. أرجوك أن تتزوجني».

شعرت به وقد بدأ يرتجف، لكن صوته كان منضبطاً تماماً وهو يقول:

«لست مضطرة لأن تفعلي هذا، يا ماريغولد. أنا رجل ناضج ويمكنني أن أتحمّل الرفض».

ـ اسمعني.

قالت هذا بغضب بالغ وقد امتلأ قلبها بالأمل فجأة لأنها أصبحت واثقة الآن من أنه ما زال يحبها: «أنا أحبك. لقد أحببتك منذ البداية تقريباً. لكنني لم أجرؤ على الاعتراف بذلك حتى لنفسي. فقد كان الوقت مبكراً جداً لأقبل بعلاقة جديدة بعد انفصالي عن دين. لكن ذلك لم يكن السبب الحقيقي. خشيت أن تسبب لي الألم بطريقة لم يكن دين ليستطيعها أبداً. هذا هو الأمر».

ـ «الأمر» مرة أخرى.

كان يحاول أن يتهكم، لكنه لم يكن متهكماً، وكلاهما يعلمان ذلك.

ـ وسمعت ذلك الحديث عن الفتاة التي ما زلت تحبها. تلك الجميلة التي هي دوماً في الخلفية. وبهذا تحققت أسوأ مخاوفي. ثم تبين لي أنها ليست امرأة عادية فقط، وإنما سيلاين جينيت، إحدى أجمل نساء العالم. واستطعت أن أفهم كيف أنه لا يمكن لامرأة في العالم أن تقارن بها. وظننت أنك كنت تنتظر أن ترغب فيك مرة أخرى.

ـ ترغب في مرة أخرى؟ ماريغولد... أنا من فسخ الخطوبة وليس سيلاين. أدركت أنني أحبها كأخت لي، كصديقة حميمة. وبعد فترة من الوقت أدركت هي أيضاً أن ذلك ليس كافياً، وأننا إذا تزوجنا فسيشقي أحدنا الآخر.

لماذا لم تفكر من قبل في احتمال أن يكون فلين هو من أنهى الخطوبة؟ لأنها كانت تحبه كثيراً جداً.

ـ كنت غيورة.

همست بذلك وعيناها تلمعان بالدموع ثم أردفت: «كما أنني لم أثق بك. إنني لا أستحق فرصة أخرى».

انزلق عن مكتبه واقترب ليقف أمامها مباشرة ثم قال: «أحبك يا

ماريغولد فلاور. وسأحبك دوماً. أحببتك حتى عندما ظننت أنك لا تحبينني ولا تريدينني وكان ذلك يعذبني ببطء. لم يتملكني مثل هذا الشعور من قبل. لقد عشت ثمانٍ وثلاثين سنة من دون أن أعرف ما هو الحب الحقيقي حتى عرفتك. هل تصدقين هذا؟».

ـ نعم، نعم، أصدقك.

كانت عيناها تتألقان وهما تنظران إليه من خلف دموعها فيما راحت نظراته تلهب بشرتها.

ـ لم أعرف من قبل ما الذي أبحث عنه في المرأة حتى رأيتك وإذا بكل شيء يتكشّف في لحظة من الزمن، فعرفت أنك كل ما أريده. هل هذا مفهوم، يا حبيبتي؟

ـ لا أدري.

ولم تكن ماريغولد تعرف شيئاً وهي قريبة منه بهذا الشكل، ما عدا أنها لا تريد أن تكون في أي مكان آخر طوال حياتها.

ـ لقد حاربتني في كل لحظة كما لو أني أنا العدوّ، فيما حاولت جاهداً أن أريك أننا خلقنا لبعضنا البعض، لكنك لم تذعني.

جعلها تبدو شجاعة تقريباً، كما فكرت ماريغولد بأسف، في حين كانت مشوّشة ومضطربة وخائفة... خائفة من مشاعرها، ومن الرغبة التي تشعر بها كلما اقترب منها.

ـ إسأليني مرة أخرى.

ـ ماذا؟

ابتعد عنها ببطء لينظر إلى وجهها المشعّ، وجاء صوته رقيقاً أجش وهو يقول: «إسأليني مرة أخرى أن أتزوجك. وقبل أن تفعلي أريدك أن تعلمي أن زواجنا سيكون رباطاً دائماً وإلى الأبد. وعندما أقول نعم، لن أعود عن كلمتي ولن أتراجع، يا ماريغولد فلاور. مهما يحدث ستبقين لي».

ـ فلين مورو، هل تتزوجني؟

سألته برقة وكأنها تقدم له كل الحب الذي في قلبها ثم أضافت: «هل

ستكون زوجي ووالد أطفالي؟ هل لك أن تكبر في السن معي وتنظر إلى أحفادنا وهم يلعبون في أيام الصيف الحلوة؟ وهل ستبقى دوماً حبيبي؟»

فقال بصوت خشن: «نعم».

وغمرتهما موجات الشوق ليغرقا معاً في بحر الحب الجارف.

***

www.elromancia.com
رومانسية